روايات احلام

سيدها

سيدها

عنيدة، مستقلة، حرة الإرادة، هكذا كانت رونـدا راسـوم. إلى أن أوقعها عنادها، وفضولها القاتل بين يدي سجّان متوحش، في جزيرة هو سيدها والقانون فيها.

إنه الأمير المطلق، «وحش الجزيرة»، وكل ما حوله خاضع له... فهل تخضع هي كذلك؟

ليلاس
الثقافية

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل | البحرين: ١ دينار
سوريا: ٧٥ ل.س. | السعودية: ١٠ ريال
[illegible] دينار | مصر: ٧ جنيه
[illegible] ٧٠ فلس | المغرب: ١٥ درهم
الإمارات: ١٠ دراهم | تونس: ٢ دينار
قطر: ١٠ ريال | عُمان: ١ ريال

SBN 9953-15-171-7

٧٥ ل.

NOOR

١ ـ الجزيرة المحرّمة

ابتسمت روندا لنفسها وهي تفكر كم هو أمر عظيم أن تكون هنا بعيداً عن نظرة أبيها المتزمتة، وعن احتجاج زوجة عمها التي قالت لها: «وماذا سيقول الناس!».

وما ستقول زوجة عمها لو استطاعت رؤيتها الآن ممددة بكل راحة على سطح المركب الشراعي الصغير «سيغال» تستحم تحت أشعة الشمس السمراء في مكان لا يحميها من عيون من يستخدم هذا المرفأ المتوسطي الصغير، ماسيرنو، سوى ساتر من قماش.

كانت سيغال قد رست في الأمسية السابقة، لكن لم يكن لديها هي أو لدى ابنة عمها أموريل وابن عمها بيرس ستورم وخطيب أموريل تشايس الطاقة الكافية للنزول إلى الشاطىء. لكن الشابين عند الصباح، قررا النزول للتزود بالمؤونة اللازمة، وقد تطوعت أموريل فوراً، وهي من تعيش على نفقة تشايس للنزول بينما رفضت روندا.

هذا ما أتاح لها، لو كانت صادقة مع نفسها، بعض الراحة من ثرثرة ابنة عمها الدائمة، والتمتع ببضع ساعات من الهدوء التام والاسترخاء. لكن روندا عادت فندمت على تفكيرها هذا فلولا موافقة أموريل على المجيء لما سمح لها والدها بهذه الرحلة.

فمهما كان السيد تشارلز ستورم منفتح الأفكار، وهو خلف مركز القيادة في سفينته الحربية، أو خلف مكتبه حيث يسيطر الآن على عالمه الخاص، إلا أنه كان رجعياً في نظرته لما تفعله الفتاة المحترمة، ولما لا تفعله فقد كان يعتقد أن الفتاة المحترمة لا تقوم برحلة بحرية إلى المتوسط على متن مركب شراعي مع رجل وحيد حتى ولو كان هذا الرجل ابن عمها، والزوج المرتقب ربما. وهكذا توجهت الدعوة إلى أموريل وخطيبها تشايس.

ومن المحتمل كذلك أن يكون بيرس، الذي استدعي في آخر لحظة لمقابلة والدها، قد تلقى تعليمات صارمة عن نوع التصرف الذي يتوقعه الاميرال السير تشارلز ستورم ممن يرافق ابنته الوحيدة. ولا بد أنه خرج من مكتبه أحمر الوجه منتفخ الأوداج.

أحياناً كانت روندا تتساءل عما إذا كان ابن عمها يخاف منها قليلاً، لكنها كانت واثقة أن هذا ليس بالأمر السيء، فلقد قررت منذ زمن بعيد أن حريتها واستقلاليتها أمران مهمان لها في أي زواج. لذلك كانت واثقة كذلك من أن بيرس لن يحاول أبداً أن يملي عليها إرادته بأية طريقة، وهذا سبب من الأسباب التي تجذبها للزواج منه.

وقفت على قدميها... نحيلة رشيقة ترتدي بيكيني قصيراً، تفكر في أن هذا النهار يبدو أقل إشراقاً. نظرت فيما حولها بعينين منتقدتين... سيغال مركب رائع لشخصين، لكنه مزدحم قطعاً لأربعة أشخاص. وهي قد فكرت مراراً في أن تقنع والدها بشراء مركب لها كهدية زواج، لتقضي شهر العسل مع بيرس على متنه، لكنها كانت تعرف أنه لن يوافق على «أن نتصرف كالهيبيين» على

حد قوله.

بيرس يحب الابحار، لكن سيغال ليست له، بل هي لشريك عمه. والشريك هذا وزوجته يعشقان البحر والابحار، ويحتفظان بمركبهما دائماً على شاطىء الريفيرا الفرنسية في مرفأ يدعى «سان رافاييل». وبما أنهما مسافران هذا الصيف إلى أميركا لزيارة ابنهما البكر المتزوج هناك، فقد وافقا على اعارة المركب لبيرس وتشايس.

كان والدها بشكل عام يبدو مسروراً من فكرة زواجها من بيرس. وكانت شكواه الوحيدة أنّ ابن اخيه درس الهندسة بدل الانضمام إلى البحرية كعمه، لكنه في النهاية اعترف أن قرار بيرس هذا يظهر أن للولد شخصية مستقلة. ولا بد أن بيرس قد ورث الكثير عن أبيه، لأن أمه، العمة افريل، وشقيقته، ابنة عمها أموريل، كانتا دون شخصية تذكر. ووالدها هو من أخذ العائلة كلها تحت جناحه بعد وفاة والد بيرس بنوبة قلبية منذ سنوات... بين أموريل وروندا فارق في العمر لا يتجاوز الأشهر ولذا أدخلهما السير تشارلز إلى المدرسة نفسها، معتقداً أنهما ستكونان خير صديقتين ومعتقداً أيضاً أن زوجة أخيه ستعوض ابنته حب الأمومة التي فقدتها روندا في طفولتها.

لكن، ما من شيء من هذا كله نجح. فهي واموريل لا يتشاركان في شيء إلا اسم العائلة. فاموريل أقصر منها ببضعة سنتمترات وتميل إلى السمنة، وأحياناً لا تتورع عن اظهار امتعاضها من هذا أمام ابنة عمها الجذابة. في حين أن بيرس لم يكن يظهر اي امتعاض للفارق المالي بين نصفي العائلة، إلا أن أموريل وأمها لم تكونا تخفيان

NOOR

تذمرهما من كونهما «الأقرباء الفقراء» في عائلة ستورم.

كانت روندا ممتنة لأن أموريل التقت بتشايس وأحبا بعضهما بعضاً كي تريح بالها بالنسبة لمستقبلها وتستقر راضية. فلن تضطر بعد الآن إلى أن تدبر أمر تلقي أموريل الدعوة نفسها إلى الحفلات كما تتلقاها هي، والأنكى أن أموريل لم تكن قط ممتنة للجهد الذي تبذله روندا لها، فاموريل دخلت كلية الفنون وأمضت فيها ردحاً من الزمن قبل أن تدرك أن مواهبها محدودة، وفي هذه الأثناء تعرفت إلى دائرة معينة من الأصدقاء، لم تكن توافق أموريل على عشرتهم، فقد كانت تخشى دائماً أن «يتحدثوا عنها» وكان على روندا أخيراً أن تعترف أن بعضاً منهم كان عرضة للقيل والقال بينما نشرت الصحف بعضاً من فضائح بعضهم.

أضف إلى هذا، أن روندا كانت تخوض معارك متكررة مع والدها الذي طالما أدان اصدقاءها المتسكعين ذوي الشعور الطويلة كما كان يصفهم. ومن دون شك أحس والدها بالارتياح لأنها اختارت شخصاً، بحسب معاييره، مناسباً وأهلاً لها.

نظرت من حيث هي على السطح إلى المقطورة الصغيرة تحت، التي تعتبر «الصالون» فوجدتها عابقة بدخان غليون تشايس وضحكت عندما شاهدت الخرائط مفتوحة فوق الطاولة القابلة للطي وسألت ساخرة:

ـ أين المحطة التالية أيها الرحالة؟

ـ إلى «مسّينا» كما أعتقد، كي نقطع المضيق ونقف هنا.

وأشار باصبعه إلى نقطة على الشاطىء اليوناني.

ـ إنها جزيرة صغيرة تدعى «كاستوريوس»... لكنها تبدو لي

مثيرة للاهتمام، وهي لا تبعد أكثر من أربع ساعات عن مضيق مسّينا. صحيح أنها صخرية، لكن فيها شواطىء رملية رائعة.

ـ هذا ما نسعى إليه. لا نريد أماكن مكتظة.

وقف تشايس وتمطى، ثم نفض غليونه في منفضة ثابتة كبيرة:

ـ سأصعد لأرى ماذا تفعل أموريل.

راقبه بيرس ضاحكاً وهو يصعد ثم التفت إلى روندا، ومد ذراعيه ليجلسها على ركبتيه:

ـ هذا ما يقال له انسحاب «تكتيكي» لبق.

فغمغمت روندا:

ـ اللباقة ليست من الشيّم التي قد أصفه بها.

ـ ليتكما معجبان ببعضكما بعضاً. عندما تتعرفين إليه جيداً ستجدينه شاباً رائعاً... وسنكون كلنا اقرباء في القريب العاجل.

أمسكت خصلة من شعره الأشقر تلفها على اصبعها:

ـ عندما يتزوج من أموريل.

فجذبها إليه أكثر وضمها:

ـ لم أكن أفكر في هذا فقط.

بيرس شاب لطيف، لكنها أدركت أنها ترخّص له أكثر مما يجب من مداعبات تسمح بها عادة. عندما أحست أنه سيتمادى، جذبت نفسها منه، فتأوه:

ـ اوه رون... ما الخطب؟

ـ لا شيء... أنت تعرف القوانين.

ـ حفظتها غيباً تماماً. كما نصها علي الأدميرال السير تشارلز ستورم.

ـ وظننتك وافقت عليها...

NOOR

ـ بالطبع... فأنا أوافق على أي شيء لأحصل عليك معي. وأنت الآن معي، ولا شيء يختلف... أيصل نفوذ الوالد الكبير حتى هذه المسافة؟

ـ أنت لا تطاق!

وانسلت من ذراعيه واقفة، فرد متعباً:

ـ أنا آسف. لكنني ظننتنا عندما نبتعد عن نظره، سنبتعد عن أفكاره كذلك.

وضحك بمرارة:

ـ أنا أنوي أن أحافظ على الوعد الذي قطعته له... لكن خطر ببالي أننا قد نتجرف في أوقات فننسى كل شيء إلا نفسينا. لكنني أخذت أدرك أنني أفكر وحدي في هذا المسار.

فسألته غاضبة:

ـ أتقول انني باردة؟

ـ لا... بل أنت أبعد من هذا، فهناك امرأة عاطفية تنتظر من يوقظها في نفسك يا رون. لكنها لن تستيقظ وأنت خاضعة تحت سلطة أبيك. لقد فكرت دوماً أنك بحاجة إلى رجل يسيطر عليك كما يفعل هو. شخص لن يجرؤ والدك على إصدار أوامره له... شخص قادر على أن يطلب من العجوز أن يهتم بما يعنيه.

فاغرورقت عيناها بالدموع:

ـ إذا كنت تظن أن والدي يتدخل كثيراً في حياتي، فهذا لأنه يحبني. وكنت أظنك تحبني يا بيرس... ألا تريده أن يحميني، أم كنت تريد أن أعرف الرجال وأنا في سن المراهقة؟

ـ بالطبع لا... سأقطع لساني لو كدّرك... ربما والدك على حق فيما يفعله معي... إذ يبدو أنه يعرف عن مشاعري أكثر مما

أعرفه أنا.

فوقفت روندا ترفع نفسها على أطراف اصابع قدميها وتطبع قبلة صغيرة على خده.

ـ أنت مخطىء يا بيرس، فأنا لا أريد رجلاً مسيطراً آخر بل أريد زواج المشاركة فيه تامة.

ـ أمل أن تستمري في إرادة هذا. سأذهب لأرى ماذا يشرب الآخران.

بعد أن خرج، نظفت منفضة السجائر ووضبت الخرائط وأخرجت بضع علب عصير مثلج من البراد الصغير... أرادت لنفسها بضع دقائق لتهدأ عواطفها قبل أن تصعد إلى السطح. فقد فوجئت بما قاله بيرس، فبعد علمها بعمق عواطفه نحوها قلقت مما قد يحدث في المستقبل من صدمات بينه وبين والدها.

بعد ساعات قليلة، كانت مقتنعة أن لا داعي لتوترها. كانت محاطة بجمع متدافع ضاحك، يرقص لكل ضربة تصدر من «الجوك بوكس» في الملهى الوحيد على الشاطىء...

كانت تعلم أنها محط أنظار كل رجل على الشاطىء، وهذه المعرفة أسعدتها، لكن ما سرّها أكثر تصميم بيرس على الالتصاق بها، ليتأكد من عدم حصول أحد على فرصة مضايقتها... ووجدت نفسها تتساءل عن إمكانية رجوعهما معاً إلى المركب فترة قصيرة وكانت تعرف تماماً ما ينتظرها لو عادا وحدهما، والفكرة جعلت نبضات قلبها تتسارع. أهذا ما تريده حقاً، أم أنها تترك سحر ليل الصيف والموسيقى يلعبان برأسها؟ فجأة لم تعد تعرف ماذا تريد، وعندما امتدت ذراعاه لتحتويها بين دائرة الطاولات التي تشكل باحة الرقص ارتفعت يداها إليه تدفعه عنها قائلة:

NOOR

ـ حبيبي... لا تكن سخيفاً... هذا النوع من الموسيقى لا يناسب هذا النوع من الرقص.

فرد بصوت أجش:

ـ اوه... رون... أريدك.

ـ ما نريده معاً هو بعض الراحة... تعال، فأنا متعبة. فلنعد إلى طاولتنا.

شقت طريقها إلى طاولتهما تضحك وترد على تحيات وإطراءات جمالها... لحق بها بيرس متجهماً وجهه الجميل:

ـ لا أحب سماع مثل هذا الكلام.

ـ مثل ماذا؟ لا تقل إنك تفهم ما يقولونه؟

ـ لست مضطراً لمعرفة لغتهم لأفهم أفكارهم.

ـ ما يقوله الناس أمر لا يهمني أبداً.

وانضما إلى أموريل وتشايس على طاولة مضاءة بالشموع في إحدى الزوايا، حيث كانا يتحدثان بجهد إلى صيادين محليين، وقفا وانحنيا باعجاب لدى اقتراب روندا وجلوسها إلى كرسيها. ثم عاد الحديث كما كان. كم سيبقون في ماسيرتو؟ حتى الغد فقط؟ لكن الأمر مؤسف للتفكير في أن السنيوريتا لن ترقص في الملهى ثانية... وإلى أين العزم بعدها؟

قال تشايس:

ـ لقد قررنا أن نعبر مضيق مسّينا، ومنها إلى جزيرة يونانية صغيرة تدعى «كاستاريوس» حيث سنرسو هناك ليلة أو ليلتين...

أطول الصيادين أمسك بذراع تشايس بقوة محذراً. فسأله:

ـ ما الأمر؟

فهز البحار رأسه ليؤكد على كلامه:

ـ لا... ليس كاستاريوس... لا كاستاريوس... ليست جيدة.

ـ وما خطب المكان؟ بالتأكيد هي مسكونة... الناس... يسكنون هناك.

هز الرجلان رأسيهما.

ـ ابتعدوا عنها... ليست جيدة... لا ترحب... بالزوار.

وتكلمت روندا ببرود وحدة، موجهةً كلماتها إلى بيرس وتشايس، اللذان كانا يتبادلان نظرات القلق:

ـ حسناً... أظن أنهم سيجدون زواراً جدداً على أعتابهم فالأمر يبدو لغزاً محيراً، ولا أحلم في أن ابتعد عن الجزيرة لأن أهلها يريدون البقاء في عزلة.

الصياد الأقصر قامة ذو الشارب، صاح متأثراً:

ـ لقد ذهبنا إليها... منذ يومين... لنصيد السمك... فأتانا رجال في مراكب مسلحة... ابقوا هنا... لا تذهبوا إلى كاستاريوس!

فغمغم بيرس مذهولاً:

ـ مراكب مسلحة... يا للجحيم! ربما يجب أن نبتعد عن الجزيرة.

فارتجفت أموريل قائلة:

ـ اوه... لا أريد الذهاب إلى مكان فيه سلاح.

صاحت روندا بصبر نافذ:

ـ لم اسمع بأسخف من هذا الكلام. ربما كان الصيد هناك ممنوعاً، أو خاصاً. ويريدون ابعاد المراكب الأخرى... لكننا لن نصيد، بل سنرسو هناك عند الخليج حيث نقضي الليل... ولا

NOOR

ضرر من هذا.

فقال تشايس متجهماً:

ـ حسناً... أظن أن علينا الابتعاد.

فتراجعت روندا غاضبة في كرسيها:

ـ اوه... بالله عليكم! لقد وضعنا خططنا... فهل ستغيرونها بسبب هلوسة خوف من صيادين ربما طوردا بسبب تطفلهما على الصيد هناك فاختلقا هذه القصة لتغطية قصة هروبهما. ليس هناك شيء خاص في الخرائط بشأن الجزيرة، ولا مانع يمنع السفن من الوصول إليها، لذا أنا مصرة على أن نذهب على الأقل لنلقي نظرة.

نظرت إلى بيرس فرأته يضعف، لكن تشايس كان متعنتاً فقال:

ـ حسناً... لقد جئت في هذه الرحلة للتمتع بأشعة الشمس والبحر ولأساعد بيرس في الإبحار. ولقد أخذنا حظاً وافراً من الشمس والسباحة، لكن التمتع والضحك أخذا يخفان. أما الشيء الوحيد الذي لست مستعداً له، هو أن آخذ خطيبتي إلى أي مكان خطر، وهذا نهائي. وإذا أصرت روندا، فسنجد أنا وأموريل مركباً يوصلنا إلى أقرب ميناء للعودة إلى الوطن.

عضت روندا شفتها غيظاً وهي ترى أن بيرس وأموريل ينظران إلى تشايس باعجاب ظاهر. وجلس الصيادان بصمت قلق فقد بدا ظاهراً لهما أن هؤلاء الجماعة قد تخاصموا على ما قالاه.

فأجبرت نفسها على الابتسام:

ـ لا حاجة للمضي حتى هذا الحد، إذا كنت تشعر بالانزعاج بشأن الأمر...

فقاطعها تشايس بحدة:

ـ أنا فعلاً أشعر به.

فكررت ترفع صوتها قليلاً:

ـ إذا كان هذا شعورك، فلماذا لا نمضي يوماً وليلة أخرى هنا؟ فأنا واثقة أننا إذا قضينا وقتاً إضافياً في جوارهم وصرفنا المزيد من المال، فسيوفر لنا السكان قصصاً خرافية أخرى لمنعنا من مغادرة المكان.

فتمتم بيرس بقلق:

ـ رون، اخفضي صوتك حبيبتي. فأنا متأكد أن بعضاً منهم يفهم ما تقولينه. فلقد بدأ البعض ينظر إلينا باستغراب.

وقف تشايس، دافعاً كرسيه إلى الوراء، وقال لأموريل:

ـ تعالي حبيبتي، قبل أن أتقوّه باشياء ضد صاحبة الجلالة قد ندم عليها جميعاً.

كانت روندا، قد أدركت أنها تمادت كثيراً، وكانت مستعدة للاعتذار. لكن كلمات تشايس أوقفت كلماتها عند شفتيها، ففكرة قضاء يوم آخر في ماسيرنو، تعاني من امتعاض تشايس وأموريل، أفزعتها. ومالت فعلاً إلى الذهاب إلى تلك الجزيرة، على الرغم من كل ما قيل.

رفاقها إذن يريدون قضاء يوم آخر هنا... حسناً فليفعلوا! أما هي فستأخذ منشفتها وثوب سباحتها، وتجد صياداً لديه زورق بخاري يوصلها إلى كاستاريوس، ولن تخبر الباقين عما تنوي فعله.

ارتفعت روحها المعنوية لهذا القرار المتحدي، لا بد أن تجد هنا من يرغب في توصيلها لقاء ثمن. وعندها ستطلب منه تركها عدة ساعات حيث تمضي يوماً رائعاً من نعيم العزلة، بينما يتجول الثلاثة الآخرون في الشوارع نفسها، يتجنبون الحمير وقذارتها

NOOR

نفسها، ويركبون العربات ذاتها، ويستأهلون ما يلاقون نتيجة غبائهم.

عادت إلى حاضرها على جلبة ارتفعت حولها فوجدت أن الصيادين يغادران وهما يتحدثان بلغتهما... فسألت:

ـ ماذا يقولان؟

فرد بيرس:

ـ لست أدري. تشايس فهم قولهما، أما أنا فلم أفهم إلا كلمة «الوحش»، ولا بد أنهما يتكلمان عن الموضوع نفسه.

فابتسمت ساخرة:

ـ أولاً، تحدثا عن أسلحة، وها هما يتحدثان عن حيوانات مفترسة، نمر أو ما يشبه، لا بد أن هناك سبباً وجيهاً لمنعنا من الذهاب إلى هناك. أيكون التهريب؟!

ـ الأمر سيان. فسنبتعد عن ذلك المكان، فلا يعجبني ما سمعت، ثم أننا سنذهب رأساً إلى كريت، وهي جزيرة رائعة، لا تنسي هذا.

ـ اوه... لن أنسى.

قاطعهما شاب تحلى بالشجاعة الكافية ليطلبها لمراقصته، وبالرغم من امتعاض بيرس وافقت روندا. وبقيت تنتقل من طالب إلى آخر ما تبقى من السهرة، إلى أن فقد بيرس القدرة على الاحتمال، فشق طريقه نحوها قائلاً:

ـ أظن الوقت أزف لنذهب رون.

فضحكت:

ـ اوه... لماذا؟

ـ لأن الوقت تأخر.

ـ لم يتأخر كثيراً... اذهبوا أنتم الثلاثة، وسأجد من يوصلني إلى المركب لاحقاً.

بدا الغضب على بيرس وقال متجهماً:

ـ ما من مجال لهذا. سننتظر إلى أن تقرري العودة.

راقبته وهو يرتدّ على عقبيه، ثم تنهدت وهي تعرف أن عليها الذهاب، فرغم ما قالته، لا تريد اعطاء أموريل وتشايس عذراً جديداً للتذمر من تصرفاتها، كما أنها تعبت. فلحقت ببيرس واعتذرت بخبث لأنها جعلتهم ينتظرونها. وهكذا عادوا إلى «سيغال». في الكابينة الصغيرة الضيقة التي تتشاركان النوم فيها قالت أموريل لروندا:

ـ اسمعي روندا... صبر بيرس معك لن يدوم إلى الأبد... فالعيش مع الناس يتطلب الأخذ والعطاء.

وردت روندا موافقة ثم صمتت تستمع إلى محاضرة ابنة عمها عن الحقوق والتضحيات تجاه من تحبه الفتاة... لكن بعد أن صمت صوت أموريل بوقت طويل كانت ما تزال صاحية تفكر... أموريل محقة في شيء واحد... يجب أن يكون هناك عنصر الأخذ والعطاء في أية علاقة. لكن المشكلة فيها وفي والدها أنهما ولدا ليأخذا... بهذه الفكرة الشريرة، أدارت اهتمامها إلى خطة الغد.

لاحظت في صالون المركب أن هناك بين الكتب دليلاً عن جزر المتوسط، جلبته معها ووضعته على الرف فوق البنك الخشبي المعلق الذي تنام عليه، فمدت يدها إلى مصباحها اليدوي تلقي نظرة إليه.

كان الكتاب يتحدث عن الجزر الرئيسية: صقلية، كورسيكا،

NOOR

كريت، المورة، الجزر الايونية. وكلها جزر معروفة على الساحلين الايطالي واليوناني. أما جزيرة كاستاريوس التي تقع ما بين «المورة» و «الجزر الايونية» فلم تحظ من الكتاب سوى بجملة واحدة، لكن لا بد أن هذا عائد إلى حجمها الصغير... فكيف لاحد أن يرغب في منع الزوار عن جزيرة بهذا الحجم؟

لكن بعد أن تابعت قراءة الكتاب اكتشفت أن الناس منعوا عن تلك الجزيرة يوماً وبعنف. فالجزيرة بمعظمها صخرية إلا ساحلاً مليئاً صغيراً، يبدو أن فيه أطلال حصن قديم بناه أهل الجزيرة لابعاد المجرمين عنهم من الغزاة والقراصنة الذين كانوا فيما مضى يملأ منطقة المتوسط.

مطت روندا شفتيها... في الأحوال العادية، كانت ستتمتع بزيارة بقايا ذلك الحصن، فهي تحب التجول في الأماكن التاريخية تاركة لمخيلتها العنان. لكنها هذه المرة أحست أن عليها الالتزام بخطتها الأساسية والبقاء على الشاطىء بعيداً عن البلدة المأهولة بالسكان. فهي على الشاطىء لن تضر أحداً، ولو كان من السكان العدائيين، الذي يحاول تقليد أسلافه بالدفاع عن حياض بلاده بالسلاح.

رمت الكتاب، اطفأت المصباح اليدوي، وراح فكرها يجول ويجول إلى أن أخمده النوم بعد الفكرة الأخيرة التي عنّت لها:

ـ لن أكون أنانية بعد اليوم... سأهب بيرس تفكيري كله... وسأبذل جهدي للمصالحة مع تشايس، ولن أتوقع من الجميع الاستسلام لإرادتي طوال الوقت.

لكن هذا الاستسلام، يستحق مخاطرة أخيرة... رحلة إلى

NOOR

كاستاريوس، قبل أن تستقر وتصبح شخصاً مرغوباً.

عندما استقرت الفكرة في رأسها كانت على وشك النوم، فجلست إلى الجلوس فجأة، تبحث عن كتاب دليل الجزر من جديد. بعد بحثها الجيد في الكتاب كله، لم تجد إشارة إلى «وحش» على تلك الجزيرة لا في الماضي ولا في الحاضر فارتاحت... واستسلمت أخيراً للنوم.

● ● ●

٢ ـ هدية التمر

لن تنسى روندا نظرتها الأولى إلى جزيرة كاستاريوس. فقد برزت من بين الضباب الخفيف الذي كان يخيم فوق البحر كشكل أسود خشن مقلّم يرتفع إزاء السماء الزرقاء التي لا شائبة فيها وفوق البحر اللازوردي. رغم مظهرها الكالح الوعر، أحست بنبضات قلبها تتسارع، وبإثارة غريبة خفيفة تتحرك في داخلها.

إذن، ما تكبدته لتصل إلى هنا يجدر به العناء. فالوصول إلى هذه الجزيرة لم يكن بالأمر اليسير. فالقسم الأول من خطتها نجح كالسحر. لكنها تألمت من خداعها بيرس.

بعد رحيل الثلاثة ارتدت ملابسها فوق البيكيني الأسود ووقفت على سطح المركب تحمل حقيبتها الصغيرة، فأشارت إلى مركب بخاري وأقنعته بأن يوصلها إلى البر، وهناك بدأت المصاعب.

إذ يبدو أن ما سمعته من الصيادين ليلة أمس لم يكن بعيداً عن الواقع، فمحاولاتها الخبيثة لاستئجار مركب يوصلها إلى الجزيرة ليعود بها بعد بضع ساعات لاقت قلة الاكتراث، وأحياناً الرفض المطلق.

وانتشر الخبر في الميناء الصغير بأن الآنسة الانكليزية تود الذهاب وحدها إلى كاستاريوس، فتمنى الجميع أن يعود رفاقها في

الوقت المناسب لمنعها. كانت قد بدأت تشعر بالاحباط وتود العودة إلى سيغال لتمضية ما تبقى من اليوم عندما ذكر أحدهم اسم خوليو أمامها، وعلى الفور لمع الضحك بين المستمعين، فعلمت أن خوليو هو الرجل الوحيد الذي قد يخاطر ويصطحبها إلى هناك، في مركبه السريع، فهو المجنون الوحيد بينهم. لكنها علمت أن جنون خوليو هو في حماقته وتهوره لا في عقله.

بدا خوليو متأثراً... فبذل الجهد ليفهمها بواسطة الايماءات، وإدارة العينين أنه سيكون سعيداً جداً بمرافقة «بيلا سنيوريتا» أي الآنسة الجميلة إلى حيث تشاء، مشيراً إلى أن المال لا يهمه.

لكنها أصرت، فهي تريد أن تكون رحلتها على أسس عملية، وعلمت من طريقة أخذه المال وتخبئته في جيب سري داخل سترته، أن له زوجة شريرة وعدة أولاد.

وقف العديد من الصيادين يراقبون رحيلها مع خوليو، دون أن يودعوها ودون أن يلوحوا أو يرسلوا القبل على اليدين كعادتهم، فقد كانت وجوه الرجال قاتمة غير مبتسمة، بل إن بعضهم كان مقطباً، عندها أدركت أنهم إذا كانوا يعرفون أن خوليو مجنون، فهم يعتبرونها امرأة حمقاء...

بينما كان الزورق يسير بهما فكرت في أنها أمضت معظم حياتها معتمدة على والدها، تفكر على الدوام في ما يحب وفي ما يبغض. كان دائماً يطالب أن يسير منزله كما تسير الساعة، مع أنه كان يبتعد عن أي مشكلة تبرز، وكانت تعلم منذ نعومة أظافرها أنه يتوقع منها هي أن تتولى حل مشاكل المنزل مع الخدم فتتخذ كل القرارات اليومية. ولو كان زواجها من بيرس سيكون بمثابة استبدال

NOOR

وظيفة مدبرة منزل بوظيفة مماثلة... فما الفائدة؟

لاحظت كيف ارتجفت عندما ذكرت في نفسها كلمة «لو» تزوجت، وعلمت أن لا فائدة من التفكير في الخلاص من حياة أبيها الصارمة بالزواج. فهزت رأسها يائسة، تحاول الخلاص من أفكارها. وابتسمت بارتياح عندما أخذ خوليو يغني أغنية رومانسية ايطالية.

كان الوقت قد تجاوز الظهر عندما برزت الجزيرة أمام عينيها... فراحت ترقبها بذهول بل إنها أمضت بضع دقائق قبل أن تلاحظ أن خوليو توقف عن الغناء... فنظرت إليه فلاحظت أن أساريره تبدلت إلى عبوس طفيف، وأنه بقي يراقب البعيد وكأنه يبحث عن شيء لا يرغب في أن يجده... فأحست فجأة بجفاف شفتيها، وبدا لها البحر حولهما فارغاً، فلا دليل على الحياة على تلك الصخور المنفرة غير المرحبة، التي أخذت تقترب تدريجياً.

لو حدث شيء... ومن الأفضل أن لا تكون أفكارها محددة عن طبيعة ما قد يحدث... فسيختفيان في المياه دون أثر. لكن بيرس سيعرف، فقد تركت له مذكرة في السيغال تشرح له الأمر. وأملت أن يكون تشايس وأموريل قد قالا كل ما يريدان قوله قبل عودتها عن عنادها وأنانيتها، وغبائها.

أحست إحساساً غريباً وهي تقف على رمال الخليج الصغير الفضية تراقب قارب خوليو يبتعد خلف الصخور المرتفعة... ها هما قد وصلا... هو ذهب، وهي لم ترَ مسلحاً ولا ظهر أحد من أهل الجزيرة. ها أمامها وقت حتى الساعة الخامسة ليعود خوليو ويحملها على قاربه.

دون تفكير... ودون وعي للوقت، سبحت وطافت فوق المياه الدافئة، ثم استراحت فوق الرمال. تحس للمرة الأولى في حياتها بأنها جزء من مادة ومخلوق من هواء ومن ماء وشمس. غطست تحت المياه تغرز أصابعها في الرمال الصلبة في القعر بحثاً عن الأصداف... ثم استلقت في المياه الضحلة، تسمح للموج الخفيف أن يغسل جسدها... لم تعرف من قبل مثل هذا السكون... «ما أسعدني» وتساءلت بحزن لماذا هذا الإحساس بالسعادة؟ أليأتي بعده إحساس جارف بالأسى؟! من يدري؟

دفعها الجوع أخيراً للخروج من الماء، ففتحت منشفتها الملونة على صخرة صغيرة مسطحة قرب الماء، وأخرجت من الحقيبة الغداء الذي أحضرته معها ومعه علب من المرطبات، باتت ساخنة الآن وما عليها إلا إيجاد بركة باردة تتركها فيها حتى تبرد قليلاً.

بينما كانت تجلس دون حراك فوق الصخرة، أحست أنها تجلس عند طرف العالم. تمطت بكسل تتمتع بأشعة الشمس وبالملح على بشرتها، ثم مررت اصابعها في شعرها المبلل، فمدت يدها إلى الحقيبة فأخرجت منها المشط وسرحته... بدت الراحة غريبة هنا وهي تجلس على الصخرة تسرح شعرها.

نظرت إلى ساقيها، تقيمهما في سرّها، مع ما تبقى من مرتفعات وأشكال في جسدها... لقد اقترح عليها عدة أشخاص في الماضي أن تكون أنموذج تصوير أو عارضة أزياء، لكنها لم تفكر في الأمر بجد. فهذه مهنة تجعلها عرضة لفضول الناس وهي لا تحب الاختلاط كثيراً.

كان بيرس يشعر دوماً بالغيرة من آراء الآخرين بجمالها، لكن

NOOR

ردة فعل أبيها على فكرة العارضة كانت قاطعة للغاية، واعتقدت أن ذلك مرده اضطرارها إلى السفر والابتعاد عنه إلى عالم جديد قد لا يكون له فيه نفوذ.

خطر لها أنها هذه المرة يجب أن تصر، وأن تقنع والدها وبيرس بصواب رأيها وبوجوب أن تخط لنفسها نمطاً معيناً للحياة، فلِمَ لا تعمل عارضة؟ ماذا في هذا العمل؟ وفكرت: سأستخدم اسماً مختلفاً... فإذا نجحت أو فشلت، فسيكون هذا لي أنا لا بسحر اسم «ستورم».

أخذت قارورة الزيت من حقيبتها، فدهنت جسدها كله دون تحفظ. بعد أن اكتفت من نور الشمس، نقلت منشفتها ووضعتها تحت صخرة بارزة، ثم استلقت في ظلها على وجهها... كان الهواء بارداً يتلاعب بحرارة بعد الظهر، فأغمضت عينيها عمّا يحيط بها من صخور... لكنها سمعت همس البحر من بعيد... ودوى صوت رفيع خفيف لحشرة طائرة في اذنها... سأنام بعد لحظة... لكن لا يجب أن أنام... لا يجب... كانت تقول ذلك وهي تطير فوق غمامة بيضاء من اللاوعي اللذيذ.

لم تدر ما الذي أيقظها... كل ما عرفته أنها عندما أدارت رأسها، تركزت عيناها على حذاء لمّاع لا يبعد عنها إلا نصف متر، وخلف الحذاء، حذاء آخر، وإلى اليسار، آخر...

بقيت لحظات مسمّرة في مكانها، تحدق وهي لا تصدق ما ترى، ثم التقطت باصابع مرتعدة خرقاء من الحرج والخجل روبها ووضعته على صدرها قبل أن تجلس.

هذا اسوأ من أي كابوس. أمامها ما لا يقل عن ستة رجال،

يرتدون جميعهم زياً رسمياً أخضر قاتماً، وأحذية لماعة تصل إلى الركبة، ولم يكن هناك اسلحة مصوبة إليها، لكن كلا منهم يحمل سيفاً على خصره، عندئذ أحست بمعدتها تخور من الخوف.

أرادت أن تتكلم، لكن الكلمات لم تخرج، فقد جف حلقها. وبقي الصمت يستمر ويستمر حتى الأبد. كان الرجل الأقرب لها صاحب السلطة، كما يبدو، فقد كان يعتمر قبعة عالية مدببة ويحمل عكازاً. حينما خاطبها أخيراً استخدم انكليزية صحيحة ثقيلة النكهة:

- كوني طيبة يا آنسة وارتدي ثيابك لترافقينا.

- إلى أين؟

- هذا ما لن أقوله ولن تعرفيه. فلدي أوامري. وأرجو أن تسرعي. فلن ننتظر إليك.

أشار إلى الرجال، فاستداروا بطريقة عسكرية مطيعة، مع أن اثنين من الشبان منهم تبادلا نظرات الأسف والابتسام. لفت الروب على جسدها وهي تشعر بالأسى، لكنها على الأقل سترت جسدها، فاستعادت بذلك كمية لا بأس بها من ثقتها بنفسها.

التقطت منشفتها ونفضتها من الرمل ثم أعادتها مطوية إلى حقيبة القش. كان الرجل المسؤول يراقبها، فتمنت ألا يلاحظ ارتجافها، لكنها لم تكن تدري ما إذا كان الغضب أو الخوف هو الشعور الذي يعتمرها الآن.

وضع الرجل يده على ذراعها:

- تعالي، آنسة!

فصاحت باحتجاج:

NOOR

ـ لن تنجو بفعلتك هذه. فالبحار الذي أقلني إلى هنا سيعود قريباً... و...

واختفى صوتها بعد أن شاهدته يهز رأسه ببطء:

ـ من الغباء انتظاره، آنسة.

ـ لكنني أعطيته التعليمات.

فرد بهدوء:

ـ ونحن أيضاً أعطينا الأوامر للصديق الذي أوقفناه بعد أن أوصلك.

فصاحت:

ـ لم تقتلوه؟

ـ لا... فنحن لسنا متوحشين.

ـ اذن... اتركوني وشأني.

وكرهت نفسها بسبب لهجة التوسل في صوتها. لكنه رد بمنطق:

ـ لكن، إلى أين ستذهبين... آنسة؟ ما من وسيلة لديك لمغادرة الجزيرة.

فجأة تحركت روندا فضربته بحقيبتها، التي جعلته يترنح وذلك عندما وقعت الضربة على صدره. ثم ركضت، تتلوى بجنون متجنبة الأيدي الممدودة للإمساك بها، واتجهت رأساً إلى البحر دون أن يكون لها فكرة محددة عما ستفعل... لكنها سباحة ماهرة، ولو استطاعت الوصول إلى تلك الصخور الناتئة في البحر... فهناك أمل في أن يجيء بيرس على متن سيغال بحثاً عنها فينقذها قبل أن يصل إليها متعقبوها... فهي لم تر أي أثر لقارب قريب، ولا بد أنهم استخدموا طريق البر للوصول إلى هنا.

كانت المياه تغمرها حتى الوسط عندما وصل إليها أول الرجال، فقاومته بشراسة تضربه بيديها وتخدشه بأظافرها. لكنه أمسك بها جيداً قبل أن يصل آخر، ثم آخر. وحملوها وهي ترفس وتقاوم، والماء يتقطر منها، ثم رموها على الشاطىء حيث أمسكوها بذراعيها فثبتوها إلى الرمال، وهي خائرة القلب لأنها خسرت فرصتها الوحيدة السخيفة للهرب.

أغمضت عينيها تبعد عنهما تلك الوجوه السمراء المحدقة، لكنهم أوقفوها جامدة في مكانها، وبصمت. سمعت أحدهم يتمتم عبارة بلغة لم تفهمها، قوبلت بالضحك، مما جعلها تخاف أكثر، فاستدارت إلى الرجل الذي يتكلم الانكليزية:

ـ ماذا قال؟

ـ هدئي روعك... آنسة... لا شيء.

لكنها لاحظت الابتسامة تتراقص على شفتيه وفي عمق عينيه السوداوين.

ـ لكنني أصرّ على أن أعرف!

هذه المرة لم تكن الفتاة المرتعدة الخائفة من يتكلم... بل ابنة السير تشارلز ستورم، تدعمها سنوات طوال من الخبرة الآمرة.

تردد الرجل لحظة قبل أن يهز كتفيه قائلاً:

ـ ولماذا يجب أن تعرفي... آنسة؟ كانت مزحة عابرة، ليس إلا.

ـ وهي تتعلق بي؟

التوت شفتاه قليلاً:

ـ أجل... كان يقول الحقيقة، آنسة. قال: إن قطة متوحشة مثلك ستكون هدية رائعة «للنمر».

NOOR

أحسّت مرة أخرى بالرعدة. فالأيدي الآسرة، والرجال المتحلقون حولها، أصبحوا فجأة تهديداً أكبر مما تطيق: ماذا يعنون ـ «هدية إلى النمر»؟ وهل يكون هو «الوحش» الذي سمعت عنه؟

عاد تفكيرها بجنون إلى خرافات الطفولة، التي نسيتها منذ زمن بعيد، كما كانت تظن. لكنها عادت لتطفو الآن في ذاكرتها تعذبها، قصص قرأتها عن ضحايا بشرية تقدم إلى حيوانات متوحشة في أماكن ليست بعيدة عن هذه المنطقة... وعن بطل اثينا «ثيوسوس» الذي ينتظر في عتمة متاهات «كريت» وصول الرجل الثور «مينوطور».

ارتعدت رغماً عنها... فمهما كانت هذه الجزيرة تحوي من أسرار فهي لا تريد أن تكون جزءاً منها. قد تحتمل أي شيء: غضب بيرس... اتهامات تشايس وأموريل... شرط أن تخرج سالمة من هذا الكابوس... لكن الأمر سخيف... إنها تترك لمخيلتها العنان... والأسخف من هذا هو الواقع الذي هي فيه.

ـ تعالي... آنسة.

جرّت دون لطف إلى الممر الصخري الصاعد نحو الجرف المرتفع. وأخذت تتعثر في صندالها الفاخر الذي تحطم على خشونة الطريق... ما هي المسافة التي يتوقعون منها أن تسيرها وهي في هذه الحالة؟

عند قمة الجرف الصخري أجيبت عن سؤالها، فقد كانت تقف بالانتظار سيّارة لاندروفر وسائقها.

وضع القائد منشفتها على المقعد لتجلس عليها:

ـ اجلسي... آنسة!

أطاعت روندا بصمت... فلا خيار آخر لديها. وما جعلها تشعر بالسرور أن الرجال الذين جرّوها إلى الشاطئ إلى هنا تبللوا كما تبللت، وبدوا غير مرتاحين وهم يرون بذلاتهم مبتلة بالماء. كان اثنان منهم قد جلسا قربها كل من جهة ثم صعد القائد إلى المقعد الأمامي، معطياً الأوامر لمن تبقى من الرجال بالعودة سيراً على الأقدام.

انطلقت السيارة بسرعة جعلتها تميل جانباً، واستعادت توازنها قدر الإمكان وهي لا تعلم بعد إلى أين يأخذونها. لكنها تكهنت أنهم متجهون إلى البلدة نفسها.

المناظر حولها اخشوشنت تدريجياً، والتلال على جانبي الطريق انحدرت واتّخذت طابع الفخامة والجلال. كانت إحدى هذه التلال، متوارية في حمأة الحر أمامها، مرتفعة حتى بدت جبلاً. لكنها لم تشاهد كائناً بشرياً حولها، ولا منازل بل ركام مهترء، وحظائر خراف فارغة.

التفتت إلى أحد الرجلين قربها وقالت الكلمات الوحيدة التي تعرفها:

ـ أين الناس هنا؟

فهز كتفيه، وراح يتحدث بسرعة بلغته، فلم تفهم مما قاله سوى كلمة «بالازو»... ألا يعني هذا القصر؟ هل تحوي جزيرة صغيرة حقيرة كهذه مكاناً كهذا... قصراً؟ أم أنها اساءت الفهم؟ لكن قبل أن تمضي بسؤالها التفت إليه القائد غاضباً صائحاً:

ـ اصمت!

وصمت الرجل... وبدا أن القائد أخذ يشعر بالحر، فخلع سترته ورماها لأحد الرجلين في الخلف، وكان اللاندروفر يتسلق

NOOR

مرتفعاً عالياً الآن، والجبل يلوح من فوقهم. فشاهدت روندا الزبد الأبيض لشلال مياه يهبط من فوق، فرفعت رأسها لتمعن النظر إليه... ربما عندما تصل السيارة إلى قمة هذا المرتفع... ستظهر البلدة أمامهم، وستعرف عندها إذا كان «القصر» موجوداً أم لا.

ووصل اللاندروفر إلى القمة، فمالت روندا إلى الأمام تنظر إلى ما حول السائق... لكن قبل أن تتمكن من رؤية أكثر من بضعة سقوف قرميدية حمراء تحتها، ومنظر البحر الأخضر وراء القرية، رمي فوق رأسها شيء خشن أسود، فصرخت بجنون تحاول تحرير نفسها من الغطاء الخانق.

ثم جاءها صوت القائد وكأنه من مكان بعيد:

ـ أنا آسف... آنسة. لكن هذا ضروري، فلا يجب أن تشاهدي شيئاً ولا أن يشاهدك أحد. هذه هي الأوامر. اعلمي انك ستستريحين أكثر لو توقفت عن هذه المقاومة.

فهدأت في مقعدها، غاضبة فاقدة الحس، لا تعي سوى محاولة التنفس عبر القماش السميك، الذي كان لسترته، وتمنت أن يتلفها له ماء البحر العالق فيها.

فقدت كل إحساس بالوقت أو المسافة أو الاتجاه. كانت كل حفرة تقع فيها السيارة تبدو اسوأ من الأخرى، فراحت تترنح يمنة ويسرى عند كل منعطف لا تراه لتتحضر سلفاً له... وأحست أنها عاجزة تماماً كطفلة صغيرة.

ثم تغيرت الحركة وأصبح كل شيء أخشن من الأول. هل هي طريق مرصوفة بالأحجار؟ أخذت السيارة تترنح بحدة إلى اليمين ثم تسلقت من جديد، وتوقفت فجأة، فسمعت أصوات رجال

يتكلمون، لم يلبثوا أن غرقوا في الضحك... عليها؟ رغم حرارة السترة وخوفها أحست بالغضب... كيف يجرؤ أحد على معاملتها بهذه الطريقة؟ حين تكتشف من هو المسؤول عن كل هذا، ستجعله يندم على يوم ولادته... لكنها سمعت صوتاً داخلياً يهمس ساخراً: لربما جعلوك أنت تندمين على يوم ولادتك!

وهرب الغضب مختبئاً، تاركاً المكان رحباً للخوف والارتجاف. لم يمضِ وقت حتى سمعت صياح أحد تبعه تحرك السيارة إلى الأمام... فكان المزيد من الحجارة وصوت غريب في مكان قريب... ومياه تصطدم في تدفقها بالأرض... أهو ينبوع... أم نافورة؟ وتوقفت السيارة.

ـ ترجلي يا آنسة لو سمحت.

ما كان أشد شعورها بالراحة عندما وقفت على قدميها من جديد.

ـ عليك تسلق بعض الدرجات... ميشا سيساعدك.

مدت يدها كالعمياء تتحسس درابزين حجرية عريضة ساخنة بفعل حرارة الشمس... أمسكتها ورفعت قدمها، تتحسس طرف السلم، ثم بدأت تتسلق وميشا يصدر أصواتاً مشجعة ورائها وقال صوت القائد:

ـ واحدة بعد... لقد وصلنا... آنسة. وسريعاً ما ترتاحين.

وضحك مردفاً:

ـ هناك لجنة استقبال لك.

ثم سمعت... سمعت الصوت الذي جعل شعرها يقف وجسدها يقشعر، فازدادت إحساساً بالعجز والعمى... وإذا هناك زمجرة منخفضة طويلة لحيوان ضخم.

NOOR

ملأ الصوت رأسها رعباً، وضغط عليها ضغطاً شديداً فيما راحت العتمة تزداد ظلاماً وابتلاعاً... وراحت تسمع نفسها تصرخ.

وللمرة الأولى في حياتها... أُغميَ عليها.

●●●

٣ ـ وحش الجزيرة

إنها مستلقية على سرير خشبي ضيق في مكان مظلم صغير. كانت هذه أول فكرة مرعبة عنَّت لها وهي تعود إلى وعيها على عجل. لكن، عندما اعتادت عيناها على الضوء المنخفض، أدركت أنها مستلقية على أريكة في معتزل صغير ذي قناطر محفور في جدار حجري سميك، مخفي عن الغرفة وراءه بستارة سميكة مثبتة على خشب أسود.

جلست ببطء، يدها إلى رأسها، تحس بالدوار والغثيان. وكادت تعيد رأسها إلى الوسادة تنتظر مرور الدوار، حينما سمعت باب الغرفة ينفتح وكرسي يزاح من مكانه، وأوراق تتحرك.

إنها ليست وحدها... بينما كانت تحدد هذا أدركت أشياء أخرى، أدركت أن الغطاء الثقيل المرمي فوقها مطرز تطريزاً يدوياً... وأن الأريكة رغم قساوتها، قطعة أثرية نفيسة... وأنها ـ وهذا ما شتت أفكارها ـ كانت لا ترتدي إلا روباً حريرياً أسود هو لرجل... ترددت لحظة، تترك المجال للغضب الناري أن يخمد في جسدها، ثم تحركت بخفة قدر استطاعتها، تدفع عنها الغطاء قبل أن تهب واقفة.

كانت الأرض الموزاييك الأنيقة تحت قدميها شديدة البرودة، فتحركت بخفة دون أن تحدث صوتاً إلى طرف الستارة ونظرت إلى

NOOR

الخارج حولها.

كانت قطعة الأثاث الأساسية في الغرفة، عدا رفوف الكتب ذات الغلافات الجلدية الفاخرة، طاولة ضخمة تقبع وسط الغرفة التي وضع على نوافذها أغطية سميكة جعلتها لا تدرك الوقت. وفي الغرفة أيضاً مصباح فوق الطاولة، كان مصدر الإنارة الوحيدة فيها. لكنه كان يكفي، كما هو ظاهر، الرجل الجالس خلف الطاولة، الغارق في قراءة وثائق لها مظهر رسمي.

لم تستطع روندا إشاحة بصرها عن وجهه... لم يكن وسيماً بشكل تقليدي، بأنفه المقوس، وانعطافة فمه الرقيق الشفتين... ومع ذلك فهو آسر فاتن. نظرتها التقطت أيضاً شعره الكث الأسمر المتدلي حتى ياقة قميصه الحريري وأهدابه السميكة التي تغطي لون عينيه.

ذكّرها بشخص ما. حركت دماغها بحثاً عمن يكون. إن له علاقة بصورة شاهدتها... لكنها ليست صورة فوتوغرافية... ما هي يا ترى؟... ثم تذكرت. كانت صورة لوحة وضعت في كتاب فني اطلعت عليه مرة... لوحة لأمير يعود إلى عصر النهضة في أوربا... واللوحة تشبه هذا الرجل الجالس على بعد أمتار منها.

بينما كانت تقنع نفسها بسخف تفكيرها، سمعته يتكلم، بصوت منخفض رنان:

ـ أنا لست فرجة لمسترقي النظر... آنستي!

سرعان ما لفت الروب حول جسدها وأعادت ربطه، ثم رفعت رأسها بثقة كانت بعيدة عن الإحساس بها. وتقدمت من خلف الستارة نحو الطاولة، تسأله آمرة:

ـ من أنت؟

ـ أنا سيد الجزيرة.

خطفت عجرفة بيانه البسيط أنفاسها، ثم تنبهت إلى أنها تحملق فيه مشدوهة، فسيطرت على نفسها بقساوة، قائلة:

ـ أرى هذا. بإمكانك إذن تدبير أمر رحيلي لأعود إلى جزيرة سانسيرتو حيث اصدقائي.

ـ بإمكاني هذا.

لكنه لم يرفع رأسه نحوها، بل استمر يدرس الأوراق التي في يده، فأجبرت نفسها على ضحكة خفيفة:

ـ تتحدث وكأن هناك بعض الشك.

ـ لا شك على الاطلاق آنستي... فأنا استطيع، لكنني لن أفعل.

ورفع رأسه إليها، فشهقت عندما التقت عيناه عينيها. كانتا عينين عسليتين محاطتين بإطار ذهبي، يزيد من حيويتهما ووحشيتهما.

ـ أتلمح إلى أنني سجينة هنا؟

ـ إنه أكثر من تلميح آنستي. إنها الحقيقة، أنت سجينتي، وستبقين هنا إلى أن أقرر رحيلك.

مد يده إلى جرس فضي صغير وأكمل:

ـ سأجعل توماس يرشدك إلى غرفة أعددتها لك.

فقالت بحدة:

ـ انتظر... هذا أمر سخيف... أنت لا تعرف عني شيئاً، بل أنت لا تعرف من أنا... لذا لا يمكنك حجزي هنا رغم إرادتي.

فسألها بصوت ناعم:

NOOR

ـ حتى ولو جئت أنت إلى هنا، رغم إرادتي؟

ـ إذا كان الأمر هكذا، فأنا آسفة... لم أكن أعرف أن هذه أملاك خاصة. واؤكد لك أنني لن أرتكب الغلطة نفسها مرة أخرى.

قال لها ببطء وهدوء:

ـ لكنك سترتكبين أخطاء مختلفة. خطيئة الكذب مثلاً.

ـ لم أكذب.

ـ لا؟... إذن ألم تكوني أنت من رقص في ذلك الملهى في ماسيرنو ليلة أمس؟ ألم تتشاجري مع اصدقائك بعد تلقيكم تحذيراً واضحاً بالبقاء بعيداً عن الجزيرة؟ التحذير بدا قاطعاً لاصدقائك. أما أنت فتجاهلته كل التجاهل. وما يشغل بالي الآن لماذا فعلت هذا؟

صمتت روندا... إنها تفضل الموت على أن تقول لهذا الشقي المتعجرف... اليوناني، إنها جاءت إلى الجزيرة بمحض إرادتها العنيدة، لأنها ولأنها فقط تلقت تحذيراً بألا تفعل.

ـ الأسباب شخصية لا تهم سواي. نعم، أنا تلقيت تحذيراً لامتنع عن المجيء إلى هذا المكان وأنا آسفة لأنني وضعت قدمي في هذا المكان... فهل يكفيك هذا؟

ـ للأسف... لا. أنت أتيت، وفي الوقت الحاضر ستبقين.

ـ حقاً؟ قد تغير رأيك لو سمعت من أنا! والدي رجل ذو نفوذ. عندما يسمع بهذا... الاعتداء...

ـ أنت وحدك المعتدي، لقد تسللت إلى ما ليس لك حق بالتطفل عليه. كما أن هويتك ليست لغزاً... آنسة ستورم.

فتح درجاً في طاولته أخرج منه مغلفاً رماه لها. أخذته فوجدت اسمها مطبوعاً عليه، وفي داخله صورة لها مقتطعة من صحيفة

إضافة إلى مقال صغير عنها. فسألته ساخطة:

ـ من أين حصلت عليها؟

رمت المغلف على الطاولة بخشونة حتى أن بعض ما يحتويه تناثر. فقال:

ـ هذا ليس شأنك. لكن ذلك سيجعلك تعرفين أنني لا أعبأ بهويتك. فأنت فتاة شهيرة.

ـ ووالدي رجل شهير... أتحتجزني لطلب فدية؟

شهقت:

ـ لا... آنستي... لن أفعل هذا... لكن لو فعلت، فأي ثمن تضعينه فدية لك؟ ربما ليس ثمناً مرتفعاً، إذا كانت هذه المقالات صادقة.

أحست باحمرار وجهها:

ـ هل أنت واثق أن هذه المقالات تذكر الحقيقة عني؟

لكنها تساءلت لماذا اندفعت للدفاع عن نفسها أمام هذا الرجل... وأغلق الملف وأعاده إلى المغلف ووضعه من جديد في درج الطاولة.

ـ فتاة صغيرة أفسدها الدلال... وهذا الطراز لا يثير كثيراً.

ـ يبدو أنك تحملت عبئاً لا يستحق.

ـ هذه طريقة للتعرف على ضيفة متوقعة.

قطب جبينه قليلاً، وقد لاحظ ارتجاف ساقيها ثم أشار لها بالجلوس على مقعد جلدي مرتفع الظهر يماثل الذي يحتله.

ـ اجلسي آنستي... قبل أن تقعي. فارضي قاسية، قد تؤذي تلك البشرة الناعمة.

جلست ببطء وجمود، بعد أن استوعبت مضامين كلامه،

NOOR

وسألت:

ـ روب من هذا؟

فرد ساخراً:

ـ ليس لي، وهو لا يليق بك آنستي. لكن ما من امرأة تعيش في القصر، والثياب الملائمة لك يصعب أن نجدها في أوقات طارئة.

ـ طارئة؟ هذا لم يكن... لا يمكن أن يحدث...

إنه كابوس... يا رب... اجعلها تفيق منه.

وتابع صوته:

ـ ثيابك كانت مبللة من جراء محاولتك السخيفة الهرب من رجالي. ولأنها ترشح ماء فقد تسبّب لك الانفلونزا...

ـ إذن... أنت من...

منعها إحساسها بالخزي والعار من إكمال كلماتها. ملمس الحرير على بشرتها أصبح فجأة مؤلماً لأنها تصورت نفسها عارية عاجزة تحت نظرات هذا الرجل المخيف. قال بحدة:

ـ لا تظهر هذه الصدمة آنستي. فأنت لم تحرمي رجالي من نعمة النظر إلى جمال جسدك. فهل أنا أقل إنسانية منهم؟ أم أنك تفضلين اهتمامهم بك؟

قالت بهدوء واستسلام:

ـ إذا كنت تقصد اذلالي، فقد نجحت... وكل ما أرجوه أن تكون اكتفيت الآن، وأن استطيع المغادرة دون تأخير.

ـ وهل يجعلك الاذلال صمّاء كذلك آنستي؟ أنت لن تغادري الجزيرة.

كافحت لتمنع انفجارها الغاضب القلق:

ـ أظنك مجنوناً! لن تحتجزني... أنت تفهم هذا مؤكداً! عمتي يعرفون مكان وجودي وهم سيأتون بحثاً عني، نعم أنت حجزتني لكنك لن تستطيع حجزهم.

ـ لن أفعل هذا، ولا اعتقد أنهم سيبحثون عنك... فاصدقائك تلقوا ضيفة لدي بملء إرادتك.

ـ ولماذا يعتقدون هذا؟

ـ لأنهم تلقوا رسالة منك، أو بالأحرى تلقوا رسالة اعتقدوها منك تطلبين منهم فيها أن يرسلوا لك حقائبك إلى الجزيرة.

ـ سيعرفون أن الخط ليس خطي، فيرس يعرفه.

ـ عندها سيعرف توقيعك. فتوقيعك مميز آنستي.

ورمى لها بطاقة اعتمادها المصرفية على الطاولة. فصاحت به:

ـ إذن لقد زورت توقيعي إضافة إلى جريمة خطفي؟ ما أكثر الشكوى التي سأرفعها ضدك عندما أتحرر من هذا المكان! إلا إذا اضفت جريمة قتل على جرائمك الأخرى.

عادت السخرية إلى صوته القاسي:

ـ كلمات قاسية. لكني أعذرك فقد عانيت الكثير لتزوريني. هل آلام إذا عانيت لأحتفظ بك؟

فجأة تدفقت الدموع من عينيها بصمت، فدفنت وجهها بين يديها وتركتها تنهمر. ثمّ سمعت صوت جرس يدق وكأنه آت من مكان سحيق. لكنها لم تنتبه كثيراً له. حتى بعدما ساعدتها ذراع لطيفة على الوقوف وراحت كلمات مشجعة تتمتم في أذنها بصوت عميق أجش، وهي تتحرك معصبة النظر طائعة كالحالمة نحو الباب.

كانت غرفتها جميلة... فرغم ذلها وغضبها، قدرت على تقييمها... ولم يمض إلا بعض الوقت حتى أقفل الباب عليها...

NOOR

فلاحظت أن الأبواب الزجاجية المفتوحة التي تؤدي إلى الشرفة كانت مزودة بقضبان مربعة متصالبة تمنع هربها، لكنها سمحت لنسيم رقيق دافىء عابق بأريج الزهور أن يدخل الغرفة.

تمددت فوق السرير الضخم المزدوج على وجهها، تُسند ذقنها إلى يديها، وتحاول التفكير بهدوء في ورطتها. لقد توقفت عن البكاء، وتذكرت كلمات كانت تقولها لها مربيتها عندما كانت طفلة: دموع الغضب سريعة الجفاف يا عزيزتي!

حسناً لقد جفت الآن. لكن أكثر ما يضايقها الآن إنها لا تعرف سبب احتجازها... هو بكل تأكيد، لا يحتجزها للانتقام منها على اعتداتها على أملاكه؟ فعلى الرغم من الطريقة التي عاملها بها لا يبدو رحيماً. وارتجفت حينما تذكرت نظراته الباردة القاسية. وحينما تذكرت أنها ما تزال تجهل هويته.

أسندت ظهرها تحدق إلى الستائر الحريرية السوداء المتراجعة عند أطراف السرير كي يرخيها من ينام فيه قبل النوم. جالت نظرتها ثانية إلى النوافذ المسدودة بقضبان الحديد، ثم إلى الخزانة... وجلست في مكانها... يتملكها قلق فجائي. هذه غرفة امرأة، ومع ذلك فما من امرأة تسكن هنا كما قال لها.

نهضت عن السرير فداست بساط مصنوعاً من جلد الماعز وتوجهت إلى طاولة الزينة حيث تناولت منها قارورة عطر هي إحدى قارورات عدة موجودة هناك... هذه بكل تأكيد زجاجة عطر «غورلان» المفضلة لديها، أعادتها مكانها بسرعة هي تحس بجفاف في فمها، وأخذت تتحقق من باقي أدوات التجميل، فإذا هي جميعها ذات ماركات شهيرة تستخدمها دائماً. وأدركت بانفعال

مذهب جديد أن كل تجاربه عنها كانت مكتملة. وفكرت أن ترسل نظرة ما على الطاولة إلى الأرض بحركة واحدة من ذراعها... لكن عقلها تغلب. فهي لا تشك أبداً في أنه سيتركها تنام في جو الغرفة الذي سيتسمره العطر لو فعلت هذا... وفكرت ثانية: حرير وحرير... وأقفال الباب وقضبان متشابكة على النوافذ... وكأنه سجن الحريم».

رفعت يدها إلى عنقها وهي تفكر في أن هذا الكابوس حقيقي... أتهذا هي هنا؟ لقد قال لها إنه سيد المكان... فهل يعني أنه سيدها كذلك؟ أهذا هو عقابها على غزوها خلوته؟ تماسكت بسرعة... هذا هو القرن العشرين، ومهما كان هذا الرجل متعجرفاً فهو لن يكون بربرياً لهذه الدرجة. ثم أنها تعرف جيداً الرغبة إذا شهدتها في عيني رجل وسمعتها في صوته. وهو لم يظهر لها سوى الغضب البارد الممزوج بالاحتقار.

تأوهت قليلاً وهي تنظر إلى نفسها في المرآة... إنها بحاجة إلى حمام كي تغسل أثر الملح والعرق والغبار عن نفسها وشعرها. يجب عليها أن تواجه سجانها في أحسن حالاتها... لا عجب إذن أن عاملها باحتقار وعجرفة. لكنها ستجعله يرى أنها شخص عليه أن يحسب حسابه.

توجهت نحو الباب ودقت عليه بكلتا يديها، فسمعت على الفور وقع أقدام، ثم مفتاح يدور في القفل. فتراجعت حتى أسندت ظهرها إلى قائمة السرير:

ـ أنسي؟

عرفت الرجل القصير النحيل من خلال صوته فهو من رافقها إلى غرفتها... وتذكرت لطفه وتعاطفه عندما ساعدها فابتسمت

NOOR

له:

ـ أتريد الآنسة شيئاً؟ أليست الغرفة مريحة؟

ـ إنها رائعة... ولكن...

وأخفضت صوتها وكأنها تتآمر:

ـ بعد حمام ستكون أروع.

ـ بكل تأكيد آنستي. هل لكِ أن ترافقيني من هنا...

رافقها إلى ممر رخامي حيث فتح باباً قبالة باب غرفتها. وجدت روندا أمامها حماماً من الرخام الزهري اللون، فيه زاوية للاستحمام ومغطس صغير ورفوف زجاجية تحمل زيوت الحمام، والصابون، وأدوات التجميل الأخرى، ومشجب مناشف قطني يحمل مجموعة مختارة من المناشف السميكة الناعمة.

ـ أهناك شيء آخر آنستي؟

ـ بعض الملابس فقط.

ـ ستصل حقائبك قريباً... حتى ذلك الوقت... أنا آسف، فكما ترين آنستي... ليس هناك امرأة هنا.

ـ هذا ما قيل لي. لكنني دهشة فسيدك كما بدا لي أعزب.

تغيرت أسارير وجهه إلى البرزانة التي يتحلى بها الخادم المدرب المخلص... ما كان يجب أن تذكر السيد في كلامها معه، وقال بأدب:

ـ اقرعي الباب عندما تكونين جاهزة، وسأرافقك إلى غرفتك.

حين خرجت من المغطس لفت نفسها بمنشفة حمام كبيرة؛ جففت بها جسدها ثم التقطت الروب الحريري الأسود، وهي تشعر بالقرف لاضطرارها إلى ارتداء ثوب رجل... ستطلب من الخادم أن يجلب لها البيكيني والروب، الذي لا بد جف الآن. ربطت

الروب، ونظرت إلى نفسها بانتقاد. لكنها أحست بالانتعاش والقدرة على مواجهة ما ينتظرها، فقرعت الباب... وهي تعلم أن الخادم ينتظرها:

ـ أتحب الآنسة أن ترتاح قبل العشاء؟

فسألته وهو يقودها بلطف إلى سجنها الفضي:

ـ أتراك تذكر لي اسمك؟

ـ أنا توماس آنستي.

ـ أوه... إذن أنت لست يونانياً كسيدك؟

ـ أنت على حق آنستي... أنا لست يونانياً... أرجو أن تستريحي بالراحة.

لم تشعر قطُّ أنها بحاجة إلى الراحة كما هي الآن. فها العتمة بدأت تهبط. والأنوار راحت تتفتق، لكنها لاحظت أن نوراً آخر يضيء في الغرفة. كان معلقاً فوق لوحة لم تلاحظها، معلقة على الجدار قرب الباب قبالة سريرها مباشرة.

تقدمت بدافع الفضول تنظر إلى الصورة فظنتها للوهلة الأولى صورة الرجل الذي قابلته في الطابق السفلي... ثم أدركت أن الرجل في اللوحة يرتدي ملابس قرن بائد، وأن قماش اللوحة نفسها من نوعية قديمة.

لكنه يبدو كسيد القصر تماماً. شعره أسمر أحمر موضوع تحت شبكة تزينها الجواهر، ويده ممدودة يستريح عليها. هو أسير آخر في الظلام. يا للسخرية!

كانت اللوحة بكل تأكيد أصلية، مع أنها لم تميز التوقيع أو الكلمات الشاحبة المكتوبة عليها أيضاً... لكنها عادت فتبينت أن

NOOR

الكلمات ربما هي اسم صاحب الصورة، وهذا ما كان يتم فعله في لوحات القرن الرابع عشر، لكن الشاب بدت لها تنتمي إلى حقبة أبعد من هذه الحقبة، فجذبت كرسي طاولة الزينة ووقفت عليها لتحقق مما ترى. لكن لسوء الحظ كانت الكلمات قديمة بحيث لم تعد مقروءة فنزلت وهي تحس بالاحباط.

لكن ثمة اسئلة كثيرة تريد عنها إجابات... وأعادت التفكير بأحداث الساعات القليلة الماضية بذهول، لقد اغرقت... خطفت... هددت، وخوفت بل أرعبت... الرعب. هنا ارتجفت وقد تذكرت لحظة وصولها إلى القصر، وزمجرة الحيوان المنخفضة الذي لم تستطع رؤيته... ما هي تلك الجملة التي قرأتها مرة «الرعب الذي يسير في الظلام» وارتجفت، عندما اكتشفت ما تعنيه هذه الكلمات.

إذن، يبدو أن النمر موجود فعلاً... لكنه مروض بكل تأكيد... ترى هل تروض الوحوش الضارية أبداً؟

استدارت تنظر إلى اللوحة مجدداً... يا لهذا الشبه الكبير! إنه لا يصدق! فلهما الجاذبية نفسها. ترى هل كان هذا النبيل العتيق يدرك مدى جاذبيته كما هذا الرجل الموجود الآن في القصر؟

كانت غارقة في أفكارها حتى أنها لم تسمع الضجيج المفاجيء... وحينما سمعته لم تجد مكاناً فوراً، بل سارعت إلى النافذة ونظرت الخارج. فتوجت مذعورة برؤية طائرة هيلوكبتر تهبط على سقف القصر... فظنتها تقصد البابة.

هذا تطور جديد... لا شك فيه. فبينما يمنع الناس من المجيء عبر البحر ويحظرونه، يسمح لآخرين بالدخول والخروج

عبر السماء كما يشاؤون. وهذا يعني كذلك أن هناك وسيلة أخرى غير البحر لمغادرة الجزيرة. وضحكت فغلبها أولاً التفكير في كيفية خروجها من غرفتها! وبعد ذلك ـ وحده الله ـ يعرف كيف لها أن تجد طريقها خارج القصر. اصغت السمع مجدداً... فإذا هي لا تسمع صوت الطائرة وهذا يعني أنها إما حطت في القصر نفسه، وإما رحلت.

التفتت عندما سمعت صوت المفتاح في الباب الذي أطل منه توماس يحمل صينية، عليها إبريق شراب التوت وكوبين، وأعلن وهو يضع الصينية على طاولة أثرية صغيرة:

ـ طلب مني السيد أن أبلغك أن له الشرف في أن تشاركيه العشاء هذا المساء... آنستي.

ـ حسناً... أعتقد أنني لستُ في موقف يسمح لي بالرفض... لذا من الأفضل أن تقول له إنني سأتشرف بهذا... هذا إذا وجد أنه قادر على ترك ضيوفه الآخرين.

ـ ضيوف آخرون آنستي؟

ـ أجل... الرجلان اللذان وصلا بالطائرة لتوهما، أم إنهما أودعا السجن أيضاً؟

ـ أنت مخطئة آنستي. ما من هيلوكوبتر حطت على الجزيرة، ولا ضيوف في القصر سواك.

فابتسمت له أحلى ابتساماتها، وقالت بخفة:

ـ كما تقول توماس.

ثمة ما يجري في هذه الجزيرة لا يريد سيدها العظيم أن يعرفه من في الخارج... فماذا يا ترى يحاول هذا العظيم أن يخفي؟

ما إن خرج توماس، حتى سارعت إلى المرآة تنظر إلى نفسها

NOOR

بانتقاد، ورقصت عيناها وهي تنظر إلى نفسها للحظة. ثم تقدمت إلى الصينية، وصبت لنفسها كوباً من العصير المثلج.

والتفتت إلى اللوحة المعلقة على الجدار، ترفع الكوب بابتسامة تحية... وهمست من بين أنفاسها:

- والآن... سيدي النبيل... فلترَ إذا ما كنت من البشر.

- سعيد أنا لأن محنتك الأخيرة لم تهبط روحك المعنوية أنسني.

التفتت روندا ووجهها يشتعل ناراً، وكأنما تكلمت بصوت مرتفع. منذ متى يقف بالباب؟ هذا الصوت البارد المتمجرف هو الإعلان الوحيد عن وجوده.

تقدم إلى الغرفة، يتحرك دون صوت. ولاحظ أنها تنظر إليه تقيم ما يرتديه من ثياب نوم فابتسم:

- وجدت أنك قد تتزعجين لو ارتديت ملابس سهرة للعشاء.

تلميحه الساخر جعلها تصر على أسنانها فمسألة صغيرة كالملابس هي نقطة نقاش بينهما. ولقد سجل عليها نقطة، ويعرف هذا جيداً، فقالت لنفسها: اوه... سأنتقم منه، ولو لمرة واحدة!

تقدم إلى الطاولة التي تحوي الإبريق وصب لنفسه كوباً ثم قال:

- لعل هذه الفترة القصيرة من الخلوة لم تفقدك القدرة على النطق. لقد كان لديك أقوال كثيرة تقولينها عندما التقينا باكراً، وكنت أتوقع أمسية مسلية.

هزت كتفيها بغير مبالاة:

- آسفة لأنك تجد صحبتي مملة. لكنني لست معتادة على تسلية غريب في مكان حميم كهذا.

- رد يثير الاعجاب. ولكنه يناقض شخصيتك. لماذا لا تطلبين خروجي إلى الجحيم، إذا كان هذا ما ترغبين فيه؟

- وهل لهذا فرق؟

- جربي...

الأمر مغر بالفعل، لكن لو خرج، لن تستطيع اقناعه بإعطائها حتى الحرية، ولن تقدر على معرفة ما يجري هنا. مع أن الأمل بنيل أقل حرية أو أدنى معلومة ضئيل جداً إلا أنها لن تسمح لأدنى فرصة بالإفلات من يدها.

- ولِمَ أنت واثق من أنني أريد رحيلك؟

- لأنني خاطف، وسالب. ولست واثقاً مما إذا كنت سأقبل بك بعد العشاء وانسحب... لكن مع كل هذه التهم الموجهة ضدي، لن تهمني تهمة الاغواء... والغرفة كما تلاحظين مناسبة لهذا...

لعنت روندا الاحمرار الذي غزا وجهها وقالت:

- أنت مخطىء...

لكنه قاطعها:

- لا تكذبي عليّ يا جميلتي. لقد قلت لك إن الكذب عليّ خطأ. كان لديك عدة ساعات من العزلة تفكرين خلالها في عقلك الأنثوي ماذا اخطط لك... أعتقد أنك وجدت الفراش واسعاً كفاية.

ضحك ساخراً لرؤية احمرارها يشتد.

- آرين... لا يمكنك خداعي عزيزتي. حسناً... لن أفسد شهيتك للعشاء، أنت هنا آمنة، ولا أنوي أبداً مخالفة قواعد الضيافة.

NOOR

- يسرني سماع قولك هذا.

اوه... إنه لا يطاق، واثق من نفسه، مقتنع بأنه يسيطر على الوضع! لكنها أخيراً ستجعله تحت رحمتها وعندها سترى سيطرته هذه تتلاشى عند قدميها.

أنهت شرابها، وقلبها يخفق باضطراب، وقالت:

- إذا كنا سنتصرف حسب قواعد الضيافة، فعلى الأقل اذكر اسمك. فليس من العدل أن تعرف أشياء كثيرة عني في حين أنك لا تقدم لي شيئاً في المقابل.

ومدت له الكوب ليملأه من جديد، ففعل وهو يقول:

- يشبع غروري اهتمامك أنستي... اسمي ماتيوس سيبراتوس، إنك دون شك سمعت اسمي سابقاً.

طبعاً سمعته فبعد لقائها رجال الأعمال والدبلوماسيين الذين يزورون منزل والدها، لا يمكنها نسيان اسم صاحب مؤسسة سيبراتوس، شركة القرن العشرين المتطورة لدار مصرفية قديمة قد تكون جذورها ممتدة منذ القرن الرابع عشر في اليونان.

- إذن أنت فعلاً الأمير سيبراس...

فقاطعها:

- ما عدت استخدم هذا الاسم... ولا اللقب، آنستي، وجدت انه اليوم بدون قيمة.

- لكنك تعيش هنا كالأمير الحاكم.

- ربما نحن فقراء زراعياً والصيد لا يسد حاجاتنا، لذا حاولت أن أطور الأشياء لشعبي بإقامة صناعات صغيرة لهم ستخفف من اعتمادهم على اشياء غير ثابتة في حياتهم التقليدية فهل أنا مخطىء في هذا؟ وإذا طلبت منهم في المقابل الولاء والطاعة... فهل

طلب الكثير؟

- لكنك تطلب أكثر من الكثير منهم في اجبارهم على العيش حياة بدون نساء.

لاحظت نظرة الانتصار التي بدت على وجهه، وقال:

- العديد من النساء المحليات يتمتعن الآن بعطلة مكتسبة على الأرض الأم على حسابي. وغيابهن الآن أمر مؤقت، اؤكد لك. ولا ستواجهين ثورة.

- والأميرة سيبراس؟ هل تتمتع هي الأخرى بإجازة في مكان ما؟

- أني تعيش في فيلا خاصة بها في اسبارطة، على شبه جزيرة البيلوبونيز؟. لماذا لا تسأليني ما إذا كنت متزوجاً، كما سألتني عن أمي؟ فهذه المراوغة غير الضرورية مملة.

كم رغبت في أن تركله، لكنها سألته محافظة على رزانتها.

- حسناً... هل أنت متزوج؟

- لا... يا جميلتي. لكنني أنصحك أن لا تعقدي الآمال على زواجي. فلن أتزوج في الوقت الحاضر.

نظرت إليه نظرة كالعسل:

- كنت فضولية فقط سيد سيبراتوس. بما أنك تعرف الكثير عني، فهذا يعني أنك تعرف أنني مخطوبة.

- آه... أجل. إلى ذلك الشاب الأشقر الذي كنت تحبطين رجاله كلها في الملهى ليلة أمس... إنكما خطيبان مثاليان. ومع ذلك لا ترتدين خاتم الخطوبة.

- سيقيم والدي حفلة لنا خلال هذه السنة ليعلن الخطوبة.

- يا لهؤلاء الانكليز التقليديين الباردين... ألا يفكرون في

NOOR

خرج من الملاحة أولاً؟

ـ لا يحق لك أن تقول هذا. فأنا وبيرس مغرمان ببعضنا بعضاً.

ـ مغرمان إلى حد أنك تتجاهلين رغباته بقضاء يوم وحدك على الشاطىء. لا تحملقي بي هكذا عزيزتي... كم من مرة فكرت بخطيبك منذ وصلت إلى هنا؟ عندما بكيت في وقت سابق، بكيت لنفسك لا لافتراقك عنه، كما قد أرغب في أن تفعل أية امرأة لي.

فقالت بحنق:

ـ لا تتصور أن هناك امرأة غبية إلى حد أن تبكي من أجلك.

فضحك بنعومة:

ـ لا...؟ حسناً... والآن غيّبي مخالبك لئلا تصيبي المسكين توماس بصدمة. فهو سيحضر لنا العشاء.

كان من الأشرف لها أن ترفض تناول الطعام معه، لكن منظر الطعام الذي كان يدفعه توماس أمامه على عربة كبيرة، جعلها تشعر

وما إن انتهيا وأخذت تحتسي قهوتها حتى تراجعت في كرسيها منهكة من التعبة.

ـ لديك طباخ ممتاز.

ـ والخدمة أيضاً ممتازة عادة. فشعبي لا يعتبرني الغول الذي تظنينه. مع أن وضعك الحالي أفضل مما لو كنت بين يدي أحد أسلافي.

فشخصت عيناها خوفاً إلى اللوحة، فهز برأسه:

ـ ليست صفة تسرني... في عصر العنف والقسوة، مانيو سيبراس الأول، صنع من اسمه مثالاً. كانت كاستاريوس جزءاً من إتاوة دفعت من غلة سبعة ضياع تزوجها، وبنى أول قصر هنا.

ـ إذا كان سيء السمعة هكذا، فالعجب أنه انتقى مكاناً هادئاً كهذا بعيداً عن الأرض الرئيسية.

فالتوت شفتاه:

ـ الخيار لم يكن له وحده أنستي. فلقد أساء إلى أحد كرادلة روما المعتمدين في اسبارطة، بانتزاع عواطف احدى عشيقاته، واجبره الكاردينال على مغادرة البلاد... فهرب إلى هذه الجزيرة التي أصبحت معقلاً له. ودافع عنها ضد كل الوافدين، بمن فيهم القراصنة والأتراك والغزاة. لذا كان للناس عذرهم في محبته والامتنان له.

ـ هل كان حقاً رجلاً رهيباً؟

سألت هذا وهي تتأمل اللوحة، ضائعة في تعابير الأمير الميت الغريبة. فأجابها بصوت منخفض:

ـ أظنه كان كما تقولين. يقال إنه من الخير للمرء أن يموت دون أن يكون له عدو أو يكون عنده سجين. كان مانيو سيبراس الأول معتاداً على إطلاق صقره الخاص، الذي ترينه في الصورة، على عيون سجنائه.

فارتعدت روندا:

ـ الحقير!

ـ لقد كان اسمه وحش كاستاريوس.

وضعت روندا فنجان القهوة من يدها بقوة حتى انسكبت منه قطرات على القماش الأبيض الدمشقي. وسألت بذهول:

ـ ماذا قتل؟

ـ قلت إنه كان يسمى...!

وصمت، ينظر إليها متسلياً، ثم تابع باسترخاء:

NOOR

ـ هذا اللقب توارثه ذكور العائلة، معظم ابناء عائلة سيبراس سمر الوجوه، لكن كان يوئد للعائلة بين زمان وزمان ابن له مواصفات اللون والبشرة نفسها ولون العيون العسلية واللعبية ذاتها.

ـ أهذا ما يسمونك به الآن؟

ـ ليس في وجهي.

ـ لكنني ظننت... ما كان؟

ـ عمَّ تتكلمين؟

ـ عندما وصلت إلى القصر، ومترة سفاحك على رأسي، سمعت حيواناً يزمجر خفت منه خوفاً شديداً، وكانوا ليلة أمس قد ذكروا أمامي في ماسيرتو لفظة «نمر» ثم كرروا اللفظ على الشاطىء هنا... فظننت أنه نمر حقيقي يقال له وحش الجزيرة.

ارتدَّ رأسه إلى الوراء ضاحكاً:

ـ لا تنظري إلي هكذا يا جميلتي... سأريك النمر.

هب عن كرسيه متجهاً نحو النافذة، حيث راح ينفذ بصره من خلاله ثم أطلق صفيراً منخفضاً طويلاً. وانتظرت روندا متوترة الأعصاب، لا تدري ماذا تتوقع، ثم فجأة دوى نباح مسعور.

ـ اوه... كلب، هل استطيع رؤيته؟ هل هو شرس؟

ـ أجل... ولا يحترم النساء الجميلات. إنه حيوان أليف لكنني لا أنصحك بالعبث معه، أو مع أي من رفاقه.

ـ وما فائدته؟

ـ إنه كلب حراسة... يجول الأراضي حول القصر ليلاً... لكنني أقول لك ثانية عزيزتي، الخير ألا تسعي إلى صحبته. فلا أريد أن يغمى عليك ثانية.

فقالت ببرود:

ـ لا أظن هذا محتملاً... لقد فوجئت بما أجهله عندما أغمي علي سابقاً... لكنني معتادة على الكلاب، ولا ألومه لقيامه بواجبه.

أسند ظهره إلى كرسيه متنهداً، يعبث بفنجان قهوته:

ـ أتسامحين بهذه السهولة دائماً؟

ـ هذا يتوقف على نوع الاساءة.

وساد الصمت بينهما طويلاً... ثم سألته:

ـ متى ستطلق سراحي؟

ـ لديكم قول مأثور: هذه السنة، أو السنة القادمة، أو في وقت ما... أو أبداً.

حاولت أن تبقي صوتها متعقلاً:

ـ لكن ألا ترى... كلما أبقيتني مدة أطول، كلما ساء أمرك. قد تكون رجلاً مهماً في عالمك، لكنني مواطنة انكليزية لها حقوق. والخطف جريمة خطيرة، خاصة في اليونان.

ـ لكننا لسنا في اليونان. نحن في كاستريوس، التي أملكها، وأضع قوانينها. وأنت تسللت إلى أملاكي، وتتلقين الآن العقاب، فهذا هو قانوني الخاص.

ـ أظنك مجنوناً!

ـ أحياناً أحبني كما تقولين.

وهب واقفاً فبدا بحركته الرشيقة السريعة كالحيوان الذي يسمى باسمه. ووقفت روندا بدورها، وقالت:

ـ طلبت مني ألا أكلب... لكنني أعتقد أنك من يكلب علي. تتحدث عن العقاب، ولا أظن أن للعقاب صلة بما تفعل بل أعتقد

NOOR

أن هناك شيئاً يحدث هنا في الجزيرة لا تريد العالم الخارجي أن يعرف به، ولهذا لديك حرّاسك المسلحون ومراكبك المعدّة وما الحراسة لهدف خاص، بل لكتم سرّ ما. ولا أرى أن هذا الشيء إلا أمر مخزٍ لأنه يتطلب هذا كله.

فوقف عند الباب ويداه على خصره، ثم قال بصوت متوتر علمت منه أنها أصابت هدفاً:

ـ هيا... تابعي.

ـ احتفظ بسرك ما تشاء... لكنني يوماً ما سأغادر هذا المكان، فوالدي دون شك سيفتش عني... عندها سأقول كل ما أعرف. وعندها ستصبح في مكان ما تحكمه سلطة وسيعرفون كيف يتعاملون معك.

ـ ألديك شيء آخر تقولينه قبل أن أتمنى لك ليلة سعيدة؟

أخيراً ارتجف صوتها:

ـ أجل... لقد سألتني منذ قليل إذا كنت أسامح بسهولة... وسأقول لك يا وحش الجزيرة، أو يا ماثيوس سبيراتوس، أو يا أمير سبيراس، أو كائناً من تكون أو تختار أن تسمي نفسك. لن أسامحك أبداً بسبب ما أعانيه على جزيرتك... ولو اقتضى مني الأمر حياتي كلها لسعيت لأجعلك تندم. واعلم أن كل يوم تحتجزني فيه سيكون دافعاً آخر ليزداد كرهي لك.

فضحك بسخرية خافتة... جعلت قرائصها ترتعد ثم ابتعد عن الباب، فإذا هو يلمح البصر إلى جانبها.

ـ اكرهيني إذن يا عزيزتي... لكن لسبب معقول، لا لأنني جرحت كبرياءك قليلاً.

أرادت أن تتراجع لكن الكرسي ورائها منعها، فوقعت بين

ذراعيه اللتين عقدهما على جسدها وشدها نحوه، فتعلقت يداها بكتفيه غريزياً لتحافظ على توازنها.

كانت عيناه ذهبيتين لامعتين ببريق غضب داخلي أشبه بغضب نمر خطير شرس... إنه ملك في غابته الخاصة. ما إن احتواها تماماً حتى توقف عقلها عن التفكير لتحل مكانه الإثارة الفجة الصافية.

تبخر أي تفكير بالمقاومة وهو يحجزها بين يديه بتسلط وتحكم لم تحلم بوجودهما من قبل. كانت عاجزة أمام قوته، عاجزة عن منع الاستجابة الحلوة لعناقه المتدفق.

رفع رأسه، فإذا أنفاسه مضطربة، وإذا عيناه تحدقان في عينيها الواسعتين النجلاوين، ثم خرج منه صوت يجمع بين التنهيد والتأوه، قبل أن يعود إلى ضمها، ثم افترقا، ثم تعانقا، وذابا. كان وكأن لمساته تشعل ناراً حول ما تلمس. وسمعت نفسها تتنهد، تتوق إليه كما تلتفت الزهرة نحو نور الشمس.

أتاهما من زاية الممر صوت خفيف، فرفع ماثيو سبيراس رأسه، يصغي. حدقت روندا به، تشعر بالحرمان، لكنها سمعت الصوت كذلك. يرافقه وقع أقدام خافتة على الممر.

لا بد أن توماس جاء ينظّف الطاولة وهذا يعني أنه كان يمكنه ضبطهما وهما على ذاك النحو. فجرت نفسها إلى الخلف، تلفّ أطراف الروب الحريري حول جسدها، المتجمد خجلاً، بيدين مرتجفتين. فبدت على ماثيو الدهشة:

ـ عزيزتي... توماس خادم مخلص. لن يتطفل، دعيني ابعده.

NOOR

لكنها صفعته بما أوتيت من قوة... وانتظرت لحظات، خائفة من أن يرد لها الصفعة. فقد رأت وجهه يشحب كما رأت العلامة الغاضبة التي تركتها اصابعها، تبرز حمراء على خده... لكنها فجأة تحررت، تقف وحدها على ساقين تهددان بخذلانها... ونظر إليها من علو وقال ببرود:

ـ أنت تكرهينني جيداً... عزيزتي.

واختفى، كان الوقت يقارب الفجر عندما تمكنت من نوم قلق... استلقت ساعات دون نوم... مرهقة جسدياً ونفسياً أكثر مما يمكن أن تتحمل. الحلول التي توصلت إليها، كانت تتدرج من اللامرضي، إلى اللامقبول نهائياً.

لم يكن هناك مجال لتنسى أنها سمحت لعدو يبقيها سجينة في بيته لمارب مريبة، أن يغازلها ويعانقها. في الواقع... لم تسمح له فقط، بل أنها تجاوبت بكل ذرة من كيانها معه. ولولا اقتراب توماس الذي أعادها إلى رشدها، لكان لذاك المشهد نهاية وحيدة. وارتجفت... تضغط وجهها المحترق على برودة الأغطية على قماش الوسادة القطنية.

لقد أظهر لها وحش الجزيرة، رغم إظهار الكره له، والرغبة في الانتقام، كم هي امرأة ضعيفة معرّضة للمهالك. وهذا بحد ذاته يشكل صفحة أخرى يضمها لملفه عنها، وتطايرت روحها ثائرة من هذه الفكرة.

قالت لتوماس بعد خروج سيد القصر، دون أن تلتفت نحوه:

ـ توماس، هل يجب أن تبقى هذه الصورة معلقة في الغرفة أثناء وجودي فيها؟

قال بدهشة واضحة:

ـ لكنها كانت معلقة هنا دائماً آنستي! ألا تهمك؟ أنت مختلفة عن بقية السيدات اللواتي احتللن هذه الغرفة... واللواتي كن يعتقدن أن الأمير الوحش، جميل جداً.

ـ لا... لست كالأخريات... وهل كن محتجزات أيضاً؟

ساد صمت قصير تعس... ثم قال بصعوبة:

ـ لو أن الآنسة تفهم... لو أن الشرح ممكن...

فضحكت بجنون:

ـ أنت متورط في هذا كله اذن... ماذا فعل سيدك توماس؟ ماذا فعل بملايين مصارفه؟ أهذا هو سبب وجود الحراس...؟ أيتوقع هبوطاً مسلحاً ضده لاسترجاع المال؟

وسمعت صوت تحطم، فالتفتت لترى توماس منحنياً يلملم بقايا فنجان القهوة الذي كان على الطاولة... فجف فمها... إنه خادم مدرب ضليع في عمله، ولن يكسر شيئاً بشكل أخرق، دون سبب محدد... فهل أصابت الهدف بكلامها هذا؟ أيكون ماثيوس سبيراتوس، البارد الارستقراطي ذو العواطف الملتهبة... لصاً؟

قد يكون هذا تفسيراً لمغازلتها... أحسبها لن تبلغ عنه فيما لو أصبحت عشيقته. أم أنه اعتقد أن خبرته العالية في فن الاغواء قد تنسيها كل شيء؟

وقالت لتوماس:

ـ أرجوك، اخرج هذه اللوحة من هنا إن أمكن فلن أطيق وجودها في الغرفة معي!

ـ سأخبر السيد بالأمر آنستي. لكنني لا أعدك بشيء.

وخرج توماس ثم أقفل الباب وراءه بالمفتاح.

دعاؤها الذي رافقها في فترة النوم القصيرة بألا تضعف أمامه

NOOR

ثانية لم يستجب. فعندما فتحت عينيها على مضض أمام نور شمس الصباح المندفعة عبر الشباك الحديدي المثبت على النوافذ، أحست أنها ما تزال في كابوس حيث تلاحقها دون كلل أنواع عدة من القطط المتوحشة تحت أنظار رجل شعره أسمر أحمر، يقف على ذراعه صقر.

جلست في سريرها متنهدة تشعر بصداع أليم في رأسها. ثم شاهدت شيئاً عند أسفل السرير أيقظها بحدة... فقد وجدت أمامها ثلاث حقائب من الجلد الفاخر عليها حرف اسمها المذهب. هذا انتصار آخر للعدو. لكن ربما يكون هذا آخر انتصار له، وعليها أن تعترف أن من المستحسن أن تحس من جديد بملمس ثيابها على جسدها، دون أن تضطر لقضاء ساعات في روب حريري أسود. فتحت أولى الحقائب فوجدت ملابس نومها وثيابها الداخلية ورسالة مكتوبة بخط يد أموريل التي قالت فيها:

«عزيزتي روندا.

لم تذكري كم ستبقين في كاستاريوس، لذا أرسلت لك ملابسك كلها. لا أظن أننا سنطيل البقاء هنا، فبيرس مستاء جداً من جرّاء تصرفك وهو الآن لا يريد متابعة الرحلة البحرية إلى كريت. وأنا لا ألومه. سنعود رأساً إلى مسّينا دون أن نقطع المضيق... وسنراك في لندن، بعد أن تتمكني من نزع نفسك من صحبة اصدقائك اليونانيين. كان بإمكانك أن تقولي إن الأمير سبيراس صديق قديم لوالدك، بدلاً من التسلل إليه هكذا...

أموريل».

صديق قديم لوالدها إذن! اوه... يا لمكر هذا الرجل اللعين! أيستخدم لقبه المهمل لزيادة اللمسة الأخيرة على سمعته المحترمة!

أخرجت من الحقيبة روبها المطرز الفرنسي الطراز، وارتدته مكان الروب الرجالي الأسود، في اللحظة التي قرع الباب فيها بنعومة، فنادت «ادخل»... فظهر توماس:

ـ اتود الآنسة استخدام الحمام قبل تناول الفطور؟

ـ بكل تأكيد!

أخرجت روندا حفنة من الثياب الداخلية، وفتحت الحقيبة الثانية تخرج منها فستاناً قطنياً أزرق اللون ذا إطار أبيض وتنورة طويلة.

بعد أن استحمت وارتدت الفستان أحست بأن معنوياتها ترتفع، فعادت إلى غرفتها فإذا بها ترى توماس قد أعد لها طاولة قرب النافذة، وضع عليها إبريقاً طويلاً من عصير الفاكهة وإبريق قهوة فضياً على سخانة كهربائية صغيرة.

عندما عاد توماس يرفع الأطباق عن الطاولة قال لها:

ـ لقد أخبرت السيد بشأن نزع صورة سلفه من الغرفة... فقال، إننا لو ألقينا اصبعاً عليها، فستعود روح «وحش كاستاريوس» لتطاردك. لكنني أظنه كان يمزح، فما من أحد يعرف أن شبحاً يعيش في القصر.

يمزح! وغرزت أظافرها في لحم راحة يدها، لكنها أجبرت نفسها على الابتسام:

ـ قل لسيدك إن الأمر لم يعد يهم... وقل له كذلك إنني لم أعد تلك الغبية التي كنتها ليلة أمس.

بدا الاضطراب على توماس وهو يقول باحتجاج:

ـ لكنه لا يعتبرك غبية آنستي.

ـ صحيح؟ إذن ما هو برنامج السيدة المحكومة اليومي بعد أن

NOOR

تناولت فطورها؟ أهناك حقائب بريدية أخيطها له أم أنا مضطرة لقياس طول غرفتي من الحائط إلى الحائط؟

ـ ولماذا؟

ـ أنا آسفة توماس... إنها ليست غلطتك... لكنني لا أظنني أقدر على مواجهة السجن مدة طويلة.

ـ لكن السيد لا يريد سجنك، بل يريد من الآنسة أن تتجول بحرية في القصر.

ـ والأراضي حوله؟

ـ هذا ممكن... مع مرافق. فالأراضي واسعة. قد تضيع فيها الآنسة.

ـ اوه... حقاً؟ قل لسيدك إنني أحفظ الاتجاهات جيداً.

وبدا القلق على توماس:

ـ ومع ذلك...

أيحاول اخفاء مكان هبوط الهليوكوبتر؟ أم أنها قد تعثر على شيء آخر؟ وقاطعته بسرعة:

ـ أنا أمازحك توماس. ما دمت سأخرج من غرفتي، لا أمانع مهما كان عدد المرافقين.

ـ سأقول هذا للسيد.

وابتسمت لنفسها... يبدو أن الوقت شيء تملكه كثيراً... وإذا كان هناك طريق للخروج من هذه الجزيرة... فستجده... ولو استطاعت في الوقت نفسه ارکاع وحش الجزيرة... فستفعل.

عندما سمعت بارتياح وقع أقدام توماس بدأت تحس بأن ماثيو سبيراس يلاعبها لعبة القط والفأر!

ـ أتسمح الآنسة بمرافقتي إلى الصالون. (سألها توماس).

NOOR

كانت تأمل لو تتجنب لقاء آخر مع سيد كاستاريوس، إلى أن تكون آثار ما حدث ليلة أمس بينهما قد تلاشت قليلاً من ذكرتها... لكن يبدو أن اللقاء حتمي، وعليها مواجهته.

● ● ●

٤ ـ جناح الحريم

تحت ضوء الشمس وجدت ما يحيط بها من معالم القصر تبهر النظر. الجدران نظيفة تعكس الضوء على الممرات، المليئة على جانبيها بكوات صغيرة كل منها يحتوي على قطعة أثاث أثرية نفيسة، أو تمثال، أو لوحة.

كانت تود لو تتوقف لتتفحص بعضاً منها، لكنها كانت متشوقة لمعرفة مدى الحرية التي ستمنح لها... فتبعت خطوات توماس السريعة الرشيقة، وسرعان ما وصلا إلى رواق عريض ذي درابزين حجرية منحوتة. قادهما إلى بهو على طول مدخل القصر السفلي وأوصلهما إلى غرف تقود إلى أجنحة مختلفة في القصر، مركزها كله حول سلم مرمري عريض، يستدير بانحناء لطيف ليصل إلى الطابق الأرضي.

كانت الأبواب في الردهة التحتية مرتفعة جداً وسوداء، ثقيلة، محفورة، لها مقابض حديدية مزينة على شكل رأس نمر. وتساءلت بينها وبين نفسها ترى أي منها باب مكتب ماثيو سبيراس، لكن الأبواب كلها كانت موصدة تخفي كل شيء وراءها.

كان الباب الرئيسي مفتوحاً، يتسلل منه هواء الصباح...

ويبدو أن الحرية ونور الشمس في انتظارها، لكنها مع ذلك تحس أن أية محاولة للهرب ستنتزع هذه الحرية منها. وصل توماس إلى أحد الأبواب الضخمة المرتفعة وفتحه مشيراً لروندا بالمرور، دخلت فإذا بها تجد نفسها في غرفة. سارعت لتنظر حولها إلى ما يحيط بها من أناقة، الأرض الرخامية، السقف المرتفع المنحوت... ثم توقفت عيناها على صورة الرجل الواقف عند مؤخرة الغرفة، ينظر عبر باب زجاجي إلى الخارج، وظهره لها.

في بذلته الرسمية، لم يكن يبدو طويلاً أو مهيباً كما بدا لها ليلة أمس. أدار وجهه إليها فوجدت نفسها تقف أمام شخص غريب. كان شاباً أصغر سناً من ماثيو وأشد اسمراراً. لكنه جذاب كذلك، ابتسامته تتراقص على شفتيه مضيئة وجهه:

ـ إذن أنت الآنسة ستورم... يفتنني التعرف إليك.

تقدم منها ليأخذ يدها وينحني بطريقة قديمة الطراز وجدتها روندا مبهجة:

ـ اسمحي لي بأن أقدم نفسي، أنا بيدروس سبيراتوس، ابن عم ماثيوس.

ـ أمقيم أنت هنا كذلك؟

فابتسم:

ـ من الآن وصاعداً.

ـ وهل يعلم ابن عمك الطاغية بهذا؟

كان كلامها فظاً لأنها عجزت عن منعه:

ـ بالطبع يعرف. فأنا هنا بناء على دعوته، عادة أبقى معه في وقت قادم من السنة... لكنني ليلة أمس استلمت دعوته، فوصلت باكراً بالطائرة.

NOOR

ـ بالطائرة... بالهليوكوبتر؟

ـ أجل... لعلي لم أزعج منامك؟

ـ اوه... لا... وهل ستطيل الاقامة؟

ـ هذا يتوقف عليك آنستي.

ـ عليّ أنا؟

ـ سأبقى هنا ما دمت هنا... آنستي.

ـ آه... فهمت... استدعاك ابن عمك لتكون سجاني.

ـ آنسة ستورم... هل أبدو لك سجاناً؟ من الطبيعي أن تفضلي البقاء مع مائيو... ومن يلومك. لكن هذا مستحيل في الوقت الحاضر. لذا طلب مني أن أكون مرافقاً لك إلى أن ينتهي الأمر ويستطيع العودة إلى دور المضيف ثانية.

فقاطعته روندا:

ـ سيد سبيراتوس... أظنك واقع ضحية سوء فهم. فليس لي أية رغبة في البقاء مع ابن عمك، لا الآن، ولا فيما بعد. فأنا لا أرغب في وجوده... ولست أدري من أين أتتك فكرة أنه مضيفي كلمة «سجّاني»، وصف أدق بالنسبة له.

فأطلق بيدروس صفيراً خافتاً!

ـ إذن... أنت لا تتمتعين بالاقامة في القصر آنستي؟ ربما تخاصمت معه. طبعه كريه أحياناً، لدي تجاربي معه و...

ـ لا...! أنت مخطىء تماماً سيدي. مهما كان قد قاله لك ابن عمك، فأنا لست ضيفة لديه. بل أنني لم أكن أعرفه حتى يوم أمس عندما اعتقلني رجاله وأنا استحم تحت أشعة الشمس على الشاطىء في الجهة الأخرى من الجزيرة. لقد حملوني إلى هذا القصر مغطاة الرأس وكأنني كيس غسيل تحت الحراسة. ومنذ ذلك

الوقت وأنا سجينة في غرفة فيها أبواب ونوافذ قضبانها حديدية، ولوحة سادي تعود إلى القرون الوسطى أتسلى بالنظر إليها.

قطب بيدروس جبينه:

ـ غرفة سبيراس؟ اؤكد لك آنستي أن تلك الغرفة معدة لاستضافة أقرب المقربين من معارف مائيوس... واؤكد لك أنه لا يريدك أن تكرهيه. وبعد أن رأيتك آنستي، لا استطيع لومه.

ـ أعتقد أنك تظن أن علي أن أكون ممتنة لاطرائك هذا! لكنني أجد هذا ثمناً باهظاً، أدفعه لأجل بعض الحرية... قل لابن عمك، إنني أفضل رفقة نفسي سيد سبيراس. ولك العودة من حيث أتيت...!

ارتدت مبتعدة عنه بحدة والدموع تثقل جفنيها، لكنه سارع يضع يده على ذراعها، وجاء صوته رقيقاً لطيفاً:

ـ آنستي... ربما أخطأت في تقييم الموقف، واطلب صفحك. أرجوك لا تبعديني عن هنا. فكلانا مجبر على البقاء لوقت ما، ومن الغباء لنا أن نكون وحدنا.

فتنهدت:

ـ أجل... هذا غباء. أنا أقبل اعتذارك. سيدي. ربما أنا شديدة الحساسية بالنسبة للموضوع. لكني بقيت ممن يعتقدون أنني هدية مناسبة... للنمر.

ـ ومن هو الرجل الشجاع الذي قال هذا آنستي؟

للحظات تأرجحت بين الانزعاج والضحك إلى أن فاز الضحك:

ـ أحد الرجال الذين القوا القبض علي. يومها لم أكن أعرف ما يعني بالطبع. فأحسست بالذعر.

NOOR

ـ وعندما اكتشفت الحقيقة؟

ـ ازددت رعباً.

وضحكا معاً، فانجلى الجو بينهما. ثم تقدم إلى المدفأة ليجذب حبلاً مجدولاً طويلاً:

ـ لقد أصبحنا الآن صديقين، سأستدعي توماس ليحضر لنا القهوة. سنتناولها على الشرفة، وستخبريني قليلاً عن نفسك روندا... هل لي أن أناديك باسمك، وتناديني بيدرو؟

ـ لا بأس في هذا.

رافقها إلى الشرفة العريضة، المغطاة بعريشة من النباتات المتسلقة ذات الرائحة اللذيذة، المتربع فيها ارجوحة ذات مقعد عريض، وطاولة. كان الهواء من هناك عليلاً، والمناظر رائعة، تطل على حدائق متسعة تصل إلى حدود البحر.

وقال لها بيدرو:

ـ القصر مبني على حرف صخري ينتهي هناك. والقرية مع الميناء تحته مباشرة.

ـ إنها حماية مزدوجة بالنسبة للأيام الغابرة.

ـ في الواقع... هذا صحيح. «وحش كاستاريوس» الأول المعلقة صورته في غرفتك، بنى عدة مراكز مراقبة فوق أطراف جزيرته المرتفعة. بنى الحصون حولها لحمايتها من القراصنة. بعد وفاته اجتيحت الجزيرة أكثر من مرة، لكن هذا ما كان يحدث إلا عندما يغيب سيدها عنها. لذا يتناقل القرويون اسطورة أن «وحش الجزيرة» هو حاميهم، وأن ما من شر يحل عليهم ما دام يعيش بينهم.

ـ أهذا ما يشعرون به الآن وحراس ابن عمك المسلحون

يشرفون عليهم؟

ـ إنهم يتقبلون الضرورة.

ـ كما يتقبلون العيش هنا دون نسائهم حسب رغبة السيد.

ـ روندا... قد تبدو لك هناك بعض الأشياء الغريبة، لكن اتوسل إليك، لا تسألي عنها... حاولي أن تتقبلي...

ـ كأي فرد من أفراد أهل الجزيرة المساكين المؤمنين بالخرافات؟ آسفة بيدرو... فأنا لست ممتنة لحماية «وحشهم» لي. وعندما ابتعد عن هنا، سأجعله يتمنى قائلاً: ليتني لم أولد.

ضحك فجأة:

ـ ربما لن تحتاجي إلى مغادرة الجزيرة لتفعلي هذا يا روندا... والآن... ماذا تودين أن تفعلي بعد الغداء؟

تبادلا الحديث بعفوية، وعلمت روندا أن بيدرو لا يعرف كل أسرار ابن عمه لكنها تشك في أن تحصل على مساعدة منه.

ـ سأريك القصر، ثم نستلقي قرب بركة السباحة لنشرب المرطبات المثلجة.

ـ بركة سباحة؟ اوه ما أروع هذا... أين هي؟

ـ إلى جانب المنزل، مخفية عن الأنظار... أنا لست خبيراً في التاريخ، بل ماثيوس هو المهتم بهذا لذا يجب أن تطلبي منه أن يشرح لك تاريخ القصر وما يحتويه عندما يعود.

ـ لا!

ـ من الغريب جداً أن تكرهيه... فهذا مخالف لآراء النساء.

ـ لكنني لا اعتقد أن رأي النساء يهمه، وإلا لماذا لا يسمح لهن بدخول برجه العاجي؟

فضحك بيدرو:

NOOR

ـ أنت الآن اسأت فهم الموقف... فهو لا يعيش منعزلاً عن الناس، وعندما يحتاج إلى امرأة... تأتيه... صدقيني.

احمّر وجهها خجلاً، وكأنها تلميذة فصيحح أن ماثيو سبيراس أعزب إلا أنه رجل لا يتردد في التمتع بحياته كلما أراد. لكن متابعة هذه النقطة مع بيدرو لن تؤدي إلا إلى مواجهة مع أحاسيسها.

ولأنها لم تجد شيئاً تعرفه عن ماثيو سبيراس... أقنعت نفسها بألا تبحث عن شيء!

كانت الجولة في القصر تثقيفية ومتعبة فقدت خلالها روندا القدرة على عدّ الغرف والممرات التي شاهدتها إذ كانت كلها تلتف وتدور لتصل نهاية الأمر إلى الرواق المركزي فوق السلم المرمري.

بيدرو، رغم جاذبيته الظاهرة، كان أبعد ما يكون عن ابن عمه الغامض.

ـ جناح ماثيوس الخاص من هنا، أتودين رؤيته؟

ـ لا!

انكمشت تخشى فكرة لقائه في جناحه فهي لم تره طوال اليوم وما تزال تذكر كلامه البارد: «أنا لست فرجة للمتجسسين آنسة».

ـ حسناً... أظننا شاهدنا القصر كله الآن... إذن يمكننا الاستفادة من بعض العصير المثلج.

فقطبت جبينها:

ـ هذه الممرات كالمتاهة... لكنني واثقة أننا لم نمر في ذلك الاتجاه. انظر، تلك الفتحة المغطاة بالستائر، لا أذكرها أبداً.

ـ اوه... لا يعقل أن تكوني راغبة في رؤية المزيد... فلنذهب ولنبدل ملابسنا، ولنجلس بعدها قرب بركة السباحة...

فأنا متعب.

ـ فلنزر هذا المكان فقط. فمن يعلم، قد نجد منحوتة أثرية لرافاييل أوبوتشيللي نسيت أن تربني إياها.

ـ مستحيل، فأي شيء كهذا لا شك في أنه تدمر منذ قرون عندما تهدم القصر الأصلي خلال إحدى الغزوات... فهذا هو ثالث أو رابع بناء... وهو وحده الناجي.

ـ أكانت هذه اللوحات كلها والكنوز الأثرية موجودة يومها؟

فهز رأسه:

ـ بعد الحرب قرر والد ماثيوس نقل نفائس العائلة إلى الجزيرة التي كانت قبل ذلك مخبأة لتبقى بعيدة عن يد المحتل الألماني. والقصر كان مهجوراً قبل الحرب، لكن عمي فيليبس قرر بعد أن أنجب نمراً جديداً للعائلة، أن يترك له إعمار ارثه بنفسه.

ـ «نمر» جديد؟

ـ ماثيوس كان المولود الأول الذي يولد منذ أجيال ببشرة كبشرة جدنا الأول. بعد أن كان يظن العديد أن اللون الأبيض والشعر الأسمر الأحمر، قد اندثرا من إرث العائلة.

كادت روندا تتلفظ بكلمات طفولية تقول فيها: «ليت ذاك اليوم يوم ولادته لم يكن». إلا أنها سارعت لتغيير الموضوع:

ـ ألم يبق شيء من المبنى الأصلي؟

ـ أعتقد أن الأساسات ذاتها استخدمت على الدوام، اوه... والزنزانات تحت الأرض ما تزال موجودة... وهي تستخدم الآن أقبية.

بعد قليل من الصمت كان يعبث خلالها بالمفاتيح قال:

ـ أمر غريب... مفتاح هذا الباب ليس بين المفاتيح... يجب

NOOR

أن نعود.

فقالت خائبة الأمل:

ـ اوه... ألا يمكن أن ترى إذا كان يناسبه أي مفتاح آخر؟

جرّب بيدرو مفتاحاً بعد آخر كون جدوى:

ـ أرأيت روندا... لا فائدة. يجب أن نعود.

ـ ألا يبدو لك هذا غريباً بيدرو؟ كل المفاتيح الأخرى هنا، بينما هذا ناقص.

كانت واثقة أنها شاهدت أمراً غريباً في عينيه، لكن رده الباسم كان هادئاً كعادته:

ـ يجب أن تعذريني عزيزتي، حتى أفضل مدبرات المنزل تنسى أين تضع بعض الأشياء، ويجب أن أخبر ماثيو عن فقدان المفتاح.

فردت ببرود:

ـ اوه... لا تزعج نفسك، أظنه يعرف هذا.

ارتدت على عقبيها تبتعد وهي على يقين من أن سرّاً ما يخفيه هذا البيت، لكن سيد القصر لا يريدها أن تعرف إلا ما يريده هو.

التفتت مبتسمة إلى بيدرو وقد لحق بها ليسأل:

ـ ماذا ترغبين الآن عزيزتي؟... المزيد من الجولات.

فدست ذراعها بذراعه:

ـ الآن أريني بركة السباحة.

كانت المياه الزرقاء باردة على جسدها. دفعت بجسدها عن حافة البركة تسبح على ظهرها... ثم غاصت حتى القاع لتعود إلى السطح بسرعة قاطعة، وأكملت السباحة السريعة إلى الأمام حتى آخر البركة. واستلقى بيدرو على كرسي طويل إلى جانب البركة، وصاح مهنئاً:

ـ تسبحين بشكل رائع روندا. ستتسابق يوماً.

فضحكت:

ـ سأغلبك... ألا تتمرن يا بيدرو أبداً؟

ـ العب التنس قليلاً. لا أجد معنى للتمرين واكتساب العضلات لأستخدمها في مزيد من التمرين.

هذه الساعات من السباحة والاسترخاء قرب البركة، أصبحت جزءاً من روتين يومي لها منذ وصول بيدرو... جدران سجنها الآن تمددت فشملت معظم الأرض المحيطة بالقصر، لكن بيدرو كان يبدو لها سجّاناً رائعاً وإن كانت حريتها ما تزال محدودة.

لم تكن تعرف الآن أكثر مما عرفت يوم وصولها. طائرة الهليوكوبتر تابعت ذهابها وإيابها في أوقات غريبة من الليل والنهار. لكنها ما تمكنت من اكتشاف ما تحمل ولا عرفت موضع هبوطها. واستمرت حياة القصر السرية دون انزعاج رغم وجودها فيه. لكنها باتت تشعر بخطر يداهم نفسها أولاً وهو انسياقها لهذه الحياة المتكاسلة المتراخية.

كانت أحياناً تتناول طعام العشاء مع ابني العم معاً، لكنها كانت تجهد لتتجنب هذا الموقف قدر الامكان... فهناك أوقات كانت تدفعها صحبة بيدرو المسلية إلى نسيان وضعها المُراقَب. فتتصور أنها ليست سوى ضيفة في القصر. لكن نظرة ساخرة واحدة من ماثيو كانت تذكرها بوضعها الحقيقي هنا.

كان لطيف المعشر معها، لكنه متحفظ حتى بدأت تتساءل عما إذا كانت اللحظات التي امضتها بين ذراعيه ما هي إلا حلم. لكن، في الوقت نفسه، كانت استجابات جسدها الطوعية لوجوده توضح

NOOR

لها بجلاء أنها بعيدة عن التخيل. إنها تعرف ما يكفي عن الرجال لتعرف أنها تروق له، وأنه يرغبها... كانت تتساءل أحياناً، لو أن علاقتهما استمرت حتى نتيجتها الحتمية تلك الليلة، أكان ليعاملها بعدها بالطريقة ذاتها؟

في إحدى الأمسيات بعد العشاء، كانوا يستمعون إلى بعض الموسيقى العالمية الحالمة. عندما رفعت نظرها وجدت «وحش الجزيرة» ينظر إليها بثبات. لكنه سرعان ما بدا مبتعداً من جديد، ليتركها في الألم الموحش الذي سببته لها الموسيقى.

صممت بعد ذلك أن تبتعد بعد انتهاء العشاء... لكنها عندما تعشت معهما في المرة التالية، تركها ماثيو متوجهاً إلى مكتبته ليدرس أوراقاً رسمية مهمة وصلته على عجل. بقي يعمل عليها فلم ينضم إليهما حتى بعد أن دخلا الصالون ووضع بيدرو بعض الألحان الراقصة واقنعها بالرقص معه. وكان تمتعها بالأمسية يكاد يكتمل لولا فكرة دخول ماثيو عليهما وهي بين ذراعي ابن عمه... أما سبب تفكيرها في أن هذا أمر مزعج، فهي لم تعرفه، لكنها أدركت أخيراً أن هذا الاضطراب الذي يصيبها منه لا علاقة له بكونه سجانها أو بكونه مجرماً.

لكنها وهي تفكر في هذا، كانت رعشة التحذير تجري في أحاسيسها...

بعد الفطور، في أحد الأيام كانت متمددة قرب البركة عندما وقع فوقها ظل خفف من حدة الشمس عليها... ولم تكن بحاجة لفتح عينيها لتعرف أن ماثيو هو الذي يقف قربها...

ـ ماثيو! (صاح بيدرو) روندا تفاخر بأنها خير مني في السباحة... وهذا صحيح، لكنه وصمة عار لشرف رجال العائلة،

يجب أن تلغيها. وأنا أصرّ على أن تتحداها.

ـ وما الذي يجعلك تظن أن الآنسة ستورم قد تقبل التحدي؟

اضطرت عندها للنظر إليه، تحاول تخفيف وهج أشعة الشمس عن عينيها بيدها. وقالت متعمدة ابقاء صوتها بارداً:

ـ سأقبل أي تحد تقوم به سيدي.

فرد بسخرية:

ـ وتقبلين أن المنتصر الوحيد سيكون واحداً؟

ـ أقبل...

فصاح بيدرو نافذ الصبر:

ـ حسناً... هل ستتسابقان؟

فرد ابن عمه:

ـ ليس في هذه اللحظات... سنجري مباراتنا في وقت آخر، بعد التوافق على الشروط... وعندما لا تكون الآنسة متعبة من سباحة سابقة، كي تعطي أفضل ما لديها.

رمى المنشفة التي على كتفه إلى الأرض وغطس في الماء. كانت ضربات ذراعيه قوية وسريعة، تشق صدر الماء بسهولة... فكرت: إن علم أنني أجلس هنا أبدي فيه إعجابي لازداد السيد النبيل غروراً. وقفت بعفوية تتقدم من بيدرو المستلقي ووجهه إلى الكرسي الطويل، حيث قربه زجاجة زيت شمس، فتحتها وبدأت تضع الزيت على ظهره وكتفيه، فارتجف للمستها ثم استكان كالقط. وتمتم ناعساً:

ـ لك اصابع شبيهة بجناح فراشة عزيزتي.

ـ يسرني استحسانك ذلك.

ـ اوه... لكن هل سيستحسنه ابن عمي؟

NOOR

ـ وما علاقته به؟

ـ ربما لا شيء... ربما كل شيء. لكنني كلما رأيتكما معاً، أحس بشيء ما، بذبذبات ما في الجو.

ـ تتراءى لك الخيالات.

فضحك بصوت خفيض:

ـ أرجو ذلك عزيزتي، وأعدك أن تجدي مني أعظم استحسان فمانيو نال نصيباً وافراً وعادلاً من الدنيا، بما فيه الفتيات الجميلات.

لاحظت بطرف عينها أن ماثيوكان يدفع نفسه خارج البركة... فغيرت موضوع الكلام بسرعة، تسأل بيدرو إذا كان هناك أية تسهيلات للتزلج على الماء في الجزيرة، فالتفت يسأل ابن عمه:

ـ ماذا حدث للمركب السريع الذي كان هنا السنة الماضية حين كانت ماريا روموس هنا؟

فبدت الدهشة على ماثيو:

ـ أظنه في غرفة المراكب مع بقية العدة. لماذا تسأل؟

ـ روندا ترغب في التزلج.

فسارعت روندا تقول:

ـ اوه... الأمر ليس مهماً. كنت أفكر في أن بعض الخلجان حول الجزيرة هي مثالية للتزلج، لكنني لا أود ازعاج أحد أو خلق صعاب إذا كان كل شيء مخزوناً.

فقال بيدرو بمرح:

ـ اوه... لا ازعاج أبداً... فلدى ماثيو رجال ينتظرون تنفيذ ما يأمرهم به. ثم أن المركب يجب أن يُعد للاستخدام قبل زيارة ماريا القادمة. هل ستدعوها هذا الصيف ماثيو؟

نظر ماثيو إلى ابن عمه الشاب نظرة طويلة، قبل أن يقول:

ـ ربما.

ثم بدأ يجفف نفسه بمنشفته وقال:

ـ ألن أحصل على زيت شمس أيضاً آنستي؟ أم أن هذا خاص ببيدرو؟

فردت بقساوة وتوتر:

ـ لا يعني حجزك إياي في جناح «الحريم» أنه يتوجب علي التصرف كعبدة لك، سيدي.

أجفلها الغضب المستعر فجأة في عينيه، لكن بيدرو سارع إلى المقاطعة:

ـ ماذا تحبين أن تفعلي غداً روندا؟ أنأخذ بعض الطعام ونستكشف القلاع القديمة؟ لم تشاهدي الكثير من الجزيرة بعد. لكنني أحذرك، قد نخيب أملك، بعض القلاع ليست سوى أكوام من الحجارة، لكن هناك بعض المدافع الصدئة الباقية.

قبلت روندا بحماس، لكنها لاحظت أنَّ ماثيو لم يعترض على مغادرتها أراضي القصر للمرة الأولى... لا بد أنه واثق جداً من ترتيباته الأمنية.

نظر بيدرو إلى ساعته:

ـ سيحين وقت تغيير الملابس للعشاء. هل ستنضم إلينا روندا الليلة ماثيو؟

فرد ماثيو ببرود:

ـ إذا أرادت، لكن ربما تفضل البقاء في «الحريم».

التفتت إليه روندا بارتباك:

ـ أنا... آسفة على ما قلته سيدي. وسأكون سعيدة بمشاركتك

NOOR

العشاء.

ـ رائع... سيحضرك توماس إلى الصالون لتناول الكوكتيل كالعادة قبل العشاء، إذن.

وقف ملتقطاً منشفته... وابتعد. فلحقت به روندا بعد تردد فوصلت إليه عند الباب الحديدي الموصل من القصر إلى البركة:

ـ سيدي... أرجوك... هل لك إن سمحت... أن تترك باب غرفتي مفتوحاً؟ فأنا أكره السجن... وأخاف الأماكن المقفلة.

ـ وما هي الضمانات؟ فقد تفعلين أمراً غبياً لو وافقت على طلبك؟

ـ أنا... أعدك... لن أحاول الهرب... إذا كان هذا ما تعني.

ـ لن تهربي؟ حسناً... يجب أن أصدق وعدك. وعد الشرف آنستي... هذا ما اعتمد عليه؟

فتنهدت:

ـ أجل... أجل، أعدك وعد شرف.

ـ عظيم... أظنك حكيمة في قرارك.

مد يده يرفع ذقنها فالتقت نظراتهما. أبقاها للحظات هكذا، إبهام يده يلامس بخفة خدها. نعم هي لمسة خفيفة، إلا أنها أيقظت النبضات في جسدها النحيل كله... لكنه سرعان ما انزل يده وقال ببرود:

ـ والآن... اعذريني... سأراك وقت العشاء.

وجدت نفسها بعد رحيله تتساءل كيف سيكون إحساسها لو أنها المرأة الوحيدة في حياته... هل اهتم من قبل بامرأة حقاً؟ هذه... ماريا روموس مثلاً؟ وابتسمت لنفسها، سيكون الأمر

أسهل لها لو كانت ترغب في بيدرو... الفتاة التي تحدث الجميع لتأتي إلى هنا، كان يمكن أن تلتقي ببيدرو سبيراس، تعبث قليلاً معه... ثم تغادر الجزيرة دون أحزان أو ألم... لكن تلك الفتاة لم تعد موجودة... وهي الآن تعرف ما تريد، فبدل أن تكون ضحية عواطف مشتتة قد تمزقها... تريد أن تكون ضحية ماثيو... «وحش الجزيرة».

عندما عادت إلى غرفتها أحست بالراحة وتضاعفت راحتها عندما تمكنت من اغلاق بابها دون أن تسمع المفتاح يدور في القفل. استلقت طويلاً في ماء دافىء معطر، تريح جسدها وأعصابها، قبل أن ترتدي أفضل ما لديها من ثياب... وهو قفطان أبيض طويل ذو ياقة مثلثة واسعة، وكمين مطرزين بخيط ذهبي. كانت تضع العطر وراء اذنيها حين تناهى إليها صوت غريب. شخص قريب جداً كان يصفّر، إنه ليس توماس، فهو لا يفعل شيئاً غير رزين مثل هذا. كما أن الصوت قادم من الخارج.

استسلمت لفضولها، فاتجهت إلى النافذة. كانت الشمس تغرب، البحر يلمع، ذهبياً وزهرياً، تحت سماء قرمزية. كانت دائماً مشغولة الفكر بسجنها خلف القضبان لتنظر عبرها إلى الأراضي القريبة من القصر... لكنها الآن لاحظت أن غرفتها تطل على ممشى مرصوف بالحصى طويل، على جانبيه أشجار السرو الباسقة. لم يبد لها هذا الممشى مألوفاً، وتساءلت عما إذا كان جزءاً من أراضي القصر التي استكشفتها مع بيدرو.

كان هناك رجل يسير هناك يداه خلف ظهره، ولم تعد لديها، حاجة لمعرفة مكان انبعاث الصوت الخفي. لكن لا يظهر أنه أحد الخدم، أو الحرس... أهو ضيف اخر؟

NOOR

بدأت تصفر له، تضم صفيرها لتتناغم مع نغمته، فأجفل هو، ورفع رأسه، لكن وجهه لم يكن واضحاً بسبب أشعة الشمس الغاربة...

ـ لا بأس عليك يا سيد... فأنا مقيمة هنا... ربما نلتقي على العشاء...

صمتت مذهولة حين التفت الرجل وولى هارباً في *الممشى* من حيث أتى... فابتعدت عن النافذة ضاحكة:

ـ أظنني شبحاً؟ لا عجب إذن من هروبه!

كانت ما تزال تبتسم عندما دق توماس الباب:

ـ الآنسة سعيدة الليلة. هل تمتعت بيومك؟

ـ كثيراً... لكن توماس، لقد مرَّ بي أمر غريب.

وسرعان ما أخبرته الحدث... لكنه لم يشاركها مرحها بل حدق فيها بفزع واضح:

ـ عذراً آنستي... يجب أن أتحدث إلى السيد، انتظري عودتي لو سمحت.

ماذا حدث له؟ لم تقل شيئاً يسبب مثل ردة الفعل هذه! صحيح أنها أفزعت الغريب، لكنها لم تفعل شيئاً لهذا الضيف المكرَّم ربما عند مائيو.

أيكون لهذا الرجل القصير الغريب الملابس علاقة بسرّ القصر؟ لا... مستحيل! إنه يبدو رجلاً عادياً، لن يتورط في عمل اجرامي... أو في عمل شرير.

تأخر توماس بالعودة إليها حتى ظنته نسيها... وحين جاء، كان رسمياً. ورافقها إلى «الصالون» دون أن ينبث بكلمة.

بيدرو كان ينتظرها بلباس سهرة، لكنه كان قلقاً. وحين ناولها كأس شراب، قالت:

ـ شكراً لك... بيدرو... ماذا حدث؟ لقد شاهدت رجلاً في الحديقة... و...

فضحك ضحكة متوترة، وقاطعها:

ـ اوه... لقد قال لنا توماس إنك أفزعت بستانياً حتى الموت... فالمسكين لم يكن يعلم أن غرفتك مسكونة... بالمناسبة أرجو أن تعذري مائيو الليلة، فقد تلقى رسالة عبر الراديو لتوه ولديه عمل يشغله وقت العشاء.

فابتسمت روندا له:

ـ أفهم هذا تماماً.

إذن، ما فكرت فيه صحيحاً... لقد شاهدت شيئاً ما كان يجب أن تراه، وهذا ما سبب بعض الذعر والفوضى. ربما تمكنت أخيراً من تسجيل انتصار طفيف، في هذه اللعبة، لعبة القط والفأر التي تلعبها مع سيد القصر.

وابتسمت مجدداً، تدس يدها في ذراع بيدرو.

ـ ألن نتعشى؟ أحس فجأة بشهية كبيرة.

بعد انتهاء العشاء، الذي غاب عنه اشراف توماس، وافقت روندا على اقتراح بيدرو أن يتناولا قهوتهما على الشرفة التي كان فيها الهواء دافئاً وساكناً، ومثقلاً بأريج الأزهار، فتقدمت روندا حتى بداية السلم الحجري العريض الذي يقود إلى الحديقة، ووقفت تتأمل العتمة المعطرة، ثم قالت وكأنها تحلم:

ـ أمسية رائعة للنزهة.

ـ إذن... فلنتنزّه.

NOOR

وانطلقا ينزلان السلم نحو الممر العريض المفروش بالحصى أثناء سيرهما. أخبرها بيدرو أن هذه الحدائق أسسها الأمير سبيراس الذي عاش هنا في القرن السابع عشر، لأنه كان يتوق لاعادة تكوين جمال الحدائق التي يألفها على الأرض الأم:

ـ لكن رغم مظهرها الرسمي فيها سحر أثري، ألا توافقين على هذا؟ كان هناك جدار قديم أزاله من هنا بعد أن أدرك أن البحر يشكل أفضل حاجز ضد الغزاة.

ـ وكيف نصل إلى الجرف الصخري؟

ـ نستمر في السير... فلا مكان بعيد عن البحر.

وأشار إلى مكان تلتقي فيه شجيرات مرتفعة فوق بعضها وكأنها قناطر. عندما وصلا إليها، حيث روندا أنفاسها ببهجة صافية، فقد كانا يقفان في مكان ضيق من الأرض، يحيط بهما البحر المتحرك على الدوام... وفي البعيد بدا جسم أسود، وكأنه يسد الأفق.

ـ إنها جزيرة كريت.

فكرت لوقت قصير بيبرس وتساءلت عما إذا كان قد جاء على متن السيغال لزيارتها أم أنهم عادوا من حيث أتوا. وبدت لها تلك الرحلة وكأنها وقعت في زمن وعالم آخر. فارتجفت ليقول لها بيدرو في الحال:

ـ تحسين بالبرد. سأحضر لك دثاراً.

ـ هل ستتركني حقاً هنا وحدي؟

لاحظت الحرج المفاجىء الذي ظهر عليه، لكنه ابتسم بسرعة:

ـ أثق بك كثيراً يا عزيزتي. ثم، إلى أين يمكن أن تذهبي؟ ملابسك ليست مناسبة للنزول عن الجرف الصخري. كما أنني

أتركك مع حارس آخر.

وأشار إلى طرف الصخور... فبدا وكأنه يشير إلى صخرة كبيرة مركزة تقريباً عند نهاية الرأس الأرضي. وضحك ثانية من نظرتها الحائرة قبل أن يختفي بين أشجار السرو نحو القصر.

خلعت صندلها باندفاع متهور فتحسست العشب النامي تحت قدميها، ثم تقدمت نحو الصخرة المنعزلة، يدفعها فضول غريب، بينما كانت تقترب، بدأت الصخرة تتخذ شكلاً محدداً، هذه الصخرة منحوتة تمثل شكل حيوان جاثم.

إنه... دون شك، تمثال «نمر» يواجه البحر، كانت المنحوتة قديمة، الصخر الذي نحتت منه متشققاً بفعل ما مرّ عليه من أزمنة ومناخات، يملأه البرص الصخري في كل زاوية مخبئة. لكن رغم جور الزمن عليه، ما استطاع شيء أن يغير معالم القوة والبأس والتحدي التي ما تزال تنبعث من «الوحش» الحجري الضخم.

ـ عرفت إذن بأن «وحش كاستاريوس» موجود على أية حال آنستي.

كان قد تقدم منها بصمت فوق العشب. فبدت صورته معتمة في جو يتجمع الظلام فيه رويداً رويداً. ردة فعلها الأولى كانت اصطدامها بقوة بالصخر نفسه، فسمعته يتمتم بخشونة:

ـ يا إلهي!

سارع يجذبها إليه يزيح كم القفطان ليتفحص الذراع التي اصطدمت بالصخر.

ـ آذيت نفسك؟

حاولت، دون نجاح، جذب يدها من يده... فلمسة اصابعه على بشرتها أعادت إليها العديد من الذكريات التي تبعث

NOOR

الاضطراب.

ـ أنا بخير... لكنك أجفلتني.

ـ يجب أن تسامحيني!

لكي تخفي اضطرابها لجأت إلى لسانها السليط:

ـ سأضيف هذا إلى اللائحة.

ـ لائحة الأخطاء التي ارتكبتها معك؟

لمعت أسنانه للحظة بابتسامة:

ـ لكن ما هي هذه الأخطاء بالمقارنة مع ما تمتعت به منذ مجيئك إلى الجزيرة؟

ـ تمتعت به! أعلم الآن حقاً أنك مجنون! كنت تتحدث عن تمتعي وأنت الآن تراقبني كأنني مجرمة وتقفل الباب علي حتى كدت أجن من الخوف... أنت...

وصمتت، بعد أن أحست بقساوة باردة في عينيه، وسألها:

ـ ماذا كنت تقولين آنستي؟

ـ تعرف ما أعنيه.

فابتسم متجهماً:

ـ أعرف؟ أتودين أن أعترف بجرائمي؟ حسن جداً. لقد حبستك في غرفتك... حرصاً على سلامتك. فقد كان أمامي مثال واضح عن فضولك القاتل... أتذكرين هذا. كذلك كان لدي سبب وجيه يحول بيني وبين الوثوق بك... لكنك ترين الآن أنك ما عدت سجينة.

ـ وقضبان الحديد فوق النوافذ؟ هل ستزيلها كذلك؟

ـ آه... أجل... نافذة «الحريم» التي أغضبتك دوماً. تلك، للأسف، يجب أن تبقى، لكن أعدك لا لإخفاء أمر ما عن السيدة

المقيمة في الغرفة بل لأن حجارة الشرفة في الخارج غير امنة، والشبكة الحديدية تجعل من يأوي إلى الغرفة آمناً من الخطر إذا خرج إليها. أنا أحرص على سلامة الجميع مما فيهم أنت آنستي.

احمر وجهها من جرّاء كلامه اللاذع، لكنه تجاهلها وأردف:

ـ أما بالنسبة لبقية جرائمي... لقد راقبتك، أو قد تقولين عوضاً عن هذا، أنني زودتك بمرافق يقارب سنه سنك لأتأكد من أن لن تضجري وأنت في ضيافتي. أما بالنسبة لخوفك، آنسة ستورم فلا أرى أثراً لذلك الخوف. وأجد أنّ شجاعتك لم تتأثر بادعائك العذاب بين يدي. وأنصحك أن تنظري طويلاً إلى مرآتك قبل إنكار تمتعك بوجودك في جزيرتي. فالفتاة التي قدمت إلى كاستاريوس دون دعوة، كانت قلقة متوترة... هذا ما ظهر في عينيها وفي إجاباتها في ردات فعلها... لقد عاشت كالفراشة، وضجر هذه الحياة أوقعها في فخ.

صمت قليلاً... ثم أكمل بصوت خفيض:

ـ تلك الفتاة ولت يا روندا... وحلت مكانها فتاة مختلفة... فتاة قد تخاف، وتغضب، لكنها تحس وتشعر... فتاة تعلمت أن المجهول يضيف إلى الحياة النكهة التي لم تكن في حياتها من قبل.

ردت بصوت مرتجف:

ـ لا أظن أن لك الحق في قول هذا. كنت سعيدة تماماً... مع بيرس.

ـ وكنت سعيدة أكثر من دونه. وهذا بكل تأكيد ما لا أرغب في أن تشعر به الفتاة التي أريدها لي يا عزيزتي.

فردت بقساوة:

NOOR

ـ بالطبع لا... فأنت ترغب في أن تكون لك جسداً وروحاً. دون أن يكون لها يوماً شخصية منفصلة، أو حياة مستقلة.

ـ الكلام عن انفصال الشخصيات أمر مناف للقوانين الطبيعية وفي ما تصفينه لا دفء أو كرم. فلماذا ترضين بشرب الماء والحليب وأمامك فاكهة الأرض كلها؟

أصبح جسده ملتصقاً بها بقوة وكأنه الصخرة التي استندت إليها، لكنه التصق بها بحرارة، تخترق عظامها. وارتفعت يداها تستريحان على صدره... وامتلأت السماء المخملية فجأة بالنجوم المتلألئة التي تأرجحت بأقواس دوارة أمام عينيها قبل أن تغمضهما، وتستسلم للإحساس السعيد الغامر بين ذراعيه.

أخيراً أبعدها عنه وهو يمرّر اصابع يديه في شعرها الذي تشعث. ليرجع رأسها إلى الوراء:

ـ هذا كله من تأثير الليل وسحر البحر يا عزيزتي... إنه يتلاعب في رأس الإنسان، كما تتلاعبين أنت في رأسي... ويجب الآن أن أعيدك إلى القصر قبل أن تضيفي تهمة اغوائك إلى لائحة ما ارتكبت بحقك.

حدقت روندا في وجهه الذي لا يبعد أكثر من سنتمترات عن وجهها... فكرة واحدة كانت تبرز بين المشاعر التي تمتلكها... مانيوس سبيرانوس يرغب فيها بقدر ما ترغب فيه ولكنه مع ذلك استطاع إيقاف نفسه عند حدها، والتراجع بعدما حدث بينهما. لقد رفض لتوه عرضها الذي لم تتفوه به... كان ذلها أكبر لو توسلت إليه بصوت مرتفع، طالبة حبه.

كبحت بجهد فائق عبرة كانت ترتفع في حلقها، وتراجعت إلى

الوراء، مبتعدة عنه، وأبقت صوتها خفيفاً ساخراً:

ـ اوه... هيا سيدي... عناق في ضوء القمر شيء عابر، أنت بكل تأكيد جذاب... لكن لا يمكنك أن تتصور أنني قد أسمح للأمور بالمضي إلى أبعد من هذا.

وأجبرت نفسها على الضحك. وكان الظلام أقوى من أن يسمح لها بقراءة تعبيرات وجهه، لكن الازدراء كان واضحاً في صوته عندما قال لها:

ـ القصاصات في تقريري عنك لم تكن مكتملة آنستي... فهي تشير إلى أنك كنت صغيرة وطائشة... لكنها لم تعطني الانطباع بأنك عابثة كذلك... وهذا دور خطر يا عزيزتي. فحذار في المستقبل لدى اختيارك شريك اللعبة السقيمة هذه. سأرافقك الآن إلى القصر.

ـ انتظر لحظة... صندلي... لقد أضعته.

وقف ينتظر وهو يتمتم بنفاذ صبر واضح... أخيراً وجدته، وقفت بارتباك تحاول انتعاله، دون أن تفقد توازنها. ثم قالت ببرود:

ـ امسك ذراعي... لا... لا... لا بأس، شكراً لك لقد تمكنت من انتعاله.

ـ لا تتوتري هكذا، لن أفرض عليك شيئاً... فبغض النظر عن مواقفك المزدوجة الوجه، إن ابن عمي سيعود في أية لحظة، وهذا ما قد يكون محرجاً لنا معاً.

لحقت به روندا بائسة، تتعثر قليلاً فوق العشب الندي... رائحة «الآس» المسحوق تحت الأقدام كان يملأ الجو... وعلمت أنها، وحتى الأبد، ستربط حلاوة هذه الرائحة المرّة... بتعاستها.

• • •

NOOR

٥ ـ تحلم بالقمر

كانت ليلة حارة جعلتها تنضح عرقاً فشعرت روندا وهي تتقلب دون راحة فوق فراشها أن غطاء بسيطاً مثل قماش الشرشف الرقيق لا يطاق.

جاء صباح مشرق آخر، ليس في سمائه شائبة ولا نسمة عليلة.

تنبأ بيدرو بعاصفة قد تنتج عن هذا الطقس المزعج الخانق، ووافقت روندا معه على أنه طقس كئيب ثقيلة وطأته. وقال بيدرو وهو يصب لنفسه فنجان قهوة آخر عند الصباح:

ـ لا أظن أن العاصفة قد تحدث قبل أن تنهي رحلتنا بين الأطلال. هذا إذا كنت ما زلت ترغبين في هذا... ليت مائيو يأمر بأن تمد تمديدات للتكييف المركزي... كانت غرفتي كالفرن ليلة أمس.

فابتسمت:

ـ أعتقد أن التكييف أمر متطور حديث بالنسبة لجزيرة كهذه.

فهز كتفيه:

ـ للجزيرة... ربما، لكن ليس بالنسبة له... إنه يحب كل شيء حديث... يجب أن تشاهدي المطابخ... لقد حدّثها والده لكنه حسّنها حسب طلبه... تبدو الآن كغرفة قيادة سفينة فضائية. لقد جاء بكل أفكاره من أميركا حيث يقضي معظم وقته. في الواقع

كاستاريوس هي صلته الوحيدة مع عالمه القديم، فهو يؤمن بالدولية وكيّف مؤسسته المالية على هذا الأساس.

ـ ألهذا يعتبر نفسه فوق القانون؟

ـ اوه روندا! ألا ترين أبداً أن هناك قوانين يجب أن تكسر؟

ـ هذا ليس رداً. لو أن كل شخص تصرف كما يحلو له لعمت الفوضى. يُقاد رجال ونساء كثيرون إلى السجن يومياً لارتكابهم أموراً كالتي يرتكبها ابن عمك الآن... ألا تظنه يستحق السجن كأي مخالف للقانون؟

ظهر الحرج على بيدرو وهو ينظر إلى ما خلفها، ثم إليها، فعلمت أنهما لم يعودا وحدهما.

ـ ومن يستحق السجن؟

وجلس مائيو على كرسي قريب، ليصب لنفسه القهوة، فقال بيدرو ضاحكاً:

ـ روندا تقول إنك تستحق السجن لأنك فوضوي

زاد إحساس روندا بالخزي عندما ظهرت دلائل المرح نفسها في عيني مائيو سبيراس. فقالت وهي تقف:

ـ سأصعد إلى غرفتي إلى أن يحين موعد نزهتنا بيدرو... متى ستنطلق؟

ـ سأحضر السيارة عند الحادية عشرة.

في منتصف الطريق إلى غرفتها تذكرت أنها نسيت نظارتها، ومع أنها على يقين من أن توماس سيحضرها لها، فقد قررت العودة لتأخذها. كانت على وشك الخروج من الباب عندما سمعت صوت بيدرو، فارتدت إلى الوراء مختبئة:

ـ أنت واثق أنها لا تعرف شيئاً؟

NOOR

فرد ماثيو ببرود:

ـ وماذا يمكن أن تعرف؟ لقد أمضت عشرة أيام مع رفاقها في مركبهم قبل أن تصل إلى كاستاريوس. وهم لذلك لم يسمعوا أخباراً ولم يقرأوا الصحف. فلا تقلق كثيراً.

سمعت روندا بيدرو يتمتم «أن في الأمر مخاطرة» وقال ماثيو:

ـ صحيح... لكن لا تنسى أننا مجرد وسطاء في هذا كله. ثم إن الفتاة هي مسؤوليتي، ولقد قبلوا بها على هذا الأساس.

سارعت روندا للانسحاب بسرعة... كانت في حالة كاملة من التشوش.

ماذا تفعل بالضبط عائلة سبيراتوس النبيلة، وفيم هي منورطة؟ وما دخل الاذاعات والأخبار والصحف بالأمر؟ في هدوء غرفتها رمت نفسها على السرير تفكر... ماثيو مخطىء فهي قد شاهدت صحيفة أحضرها بيرس يوم كانوا في ماسيرنو... قطبت محاولة أن تتذكر ما كانت العناوين الرئيسية، مع أنها لا تذكر أن لها صلة بما يحدث في القصر... ماذا كان فيها... خلاف سياسي حول مؤتمر... سطو على مصرف...

جلست روندا ببطء... سطو على مصرف... وكررت ذلك ثانية لنفسها... أيمكن هذا؟ تذكرت فنجان القهوة الذي تحطم في يد توماس ووجهه المذعور عندما مازحته بشأن ملايين مصارف مؤسسة ماثيو الذي قال لتوه الآن إنه مجرد وسيط... أيعني هذا إن جهة أخرى قامت بالسطو وهو يخفيهم الآن في الجزيرة إلى أن تخبو الضجة؟

أدارت رأسها دون إرادة منها لتنظر إلى لوحة «وحش كاستاريوس» الأولى.. كله كبرياء وشموخ ورجولة. ربما تكون

أخلاقه عرق أثري لا يظهر نفسه إلا مرة بعد عدة أجيال، كما الحال في لون بشرته وشعره وعينيه العسليتين الذهبيتين.

وتنهدت بمرارة... إنها هي من تريد أن تسيء الظن بماثيوس سبيراتوس... ولكن الغريب أن معرفتها هذه لم تُشعرها بالانتصار، بل بخيبة أمل تبعث القشعريرة.

أكانت هذه العصابة لا تعرف بوجودها، كما لا تعرف هي بوجود العصابة؟ هذا يفسر سبب تهريبها خلسة، مغطاة إلى داخل القصر، تحت سترة قائد الحرس، ولماذا بالتالي أجبرت على البقاء هنا رغماً عنها، لا بد أن السبب للتأكد من عدم هروبها وإطلاقها للانذار قبل اختفاء أفراد العصابة. وتساءلت ماذا كان سيحصل لها لولا منحه إياها حمايته... وارتعدت.

أحست بالبرد والغثيان، لأنها شعرت بأنها لن تستطيع رؤية ماثيو ثانية لمعرفتها بما فعل... مهما كان وغداً، فقد علمها في لحظات معنى أن تكون امرأة، وغيّر نفسيتها على هذا الأساس. لكن من دونه، ماذا سيبقى لها؟ وأحست بالخوف من المياه العميقة التي أغرقها فيها انجذابها نحوه.

شهقت دون وعي، ثم عادت تسترد شتات نفسها... وقوعها في حب ماثيوس سبيراتوس، إطلاق خطر لعواطفها التي لن تطيقها. إن أكثر ما يجب أن تأمل به هو علاقة عابرة معه، سيكون بعدها شاكراً لها عدم القاء عبء مطالبها العاطفية عليه... لكن في المقابل، أتستطيع هي أن ترضى بأنها ليست بالنسبة له سوى لعبة رغب فيها.

كانت مثقلة العينين خائرة الهمة عندما نزلت للقاء بيدرو...

NOOR

الذي سارع إلى إبداء القلق واقترح عليها تأجيل رحلتهما إلى يوم آخر، لكنها رفضت. وجلست قربه في السيارة السبور المنخفضة، فمد إليها النظارة:

ـ هذه لك... أليس كذلك عزيزتي؟

ما إن وصلا إلى بوابة القصر الحديدية حتى انفتحت اتوماتيكياً بفعل ساحر، فأشار بيدرو إلى ما حولهما:

ـ إنها إحدى ألعاب مائيو الأميركية المتعددة.

فهزت رأسها مبتسمة... بل إنها إحدى قلاعه المحكمة! بعيداً عن جدران القصر المرتفعة، كانت روندا تحس بالحرية... ورغم قيظ النهار كان الهواء منعشاً ومعطر بعطر غير عادي. لم يتكلم بيدرو كثيراً أثناء القيادة، فقد تركها تتمتع بالمناظر. وراح يجتاز الطريق الضيقة التي تمر بين صخور مرتفعة تقطعها أحياناً أشجار الصنوبر والآس، الممتدة على الجانبين.

كانا يمران أحياناً بقباب صغيرة لبيوت مبنية حيث لا صخور حولها وحيث التربة فيها زراعية، وكان بيدرو يخفف سرعة السيارة ليطلق الزمور لمجموعة من الأولاد المستغرقين وسط الطريق في لعبة أنستهم الدنيا وما فيها. وكانت النسوة المتشحات بالسواد يقفن عند أبواب منازلهن يبتسمن لمن في السيارة.

ـ إننا ننعم بمجد مائيو، أتفهمين هذا، إنهن يكرمن صاحب السيارة لا من فيها.

ورفع بيدرو يده يرد على تحية النسوة.

لكن روندا بقيت صامتة بتعاسة. تساءلت ماذا يحصل لشعب هذه الجزيرة الصغير الذين يعتمدون على عائلة سبيراتوس في معيشتهم لو أن مائيواعتقل: هل سيتحمل أحد عبء المضي في

الصناعات التي أسسها لهم؟ وماذا عن القصر، أيبقى دون سيد، وماذا عن العمل الذي يوفره في داخله وحدائقه لأهل البلدة؟ بؤسها العاطفي بدا لها أنانياً لا لزوم له في ضوء ما قد يجلبه لهم سقوط عائلة سبيراتوس... ناهيك عن ردة الفعل في الأسواق المالية العالمية... وسمعت بيدرو يتكلم، فعادت إلى واقعها:

ـ في يوم آخر. سنذهب لرؤية الشلال... لأجل هذا يجب أن نسلك الطريق الآخر نحو الداخل ونتسلق المضيق بين الجبلين... الشلال يقع في أعلى نقطة في الجزيرة.

كانت المجموعة الأولى من القلاع التي وصلاها مخيبة للأمل. لأنها كما قال لها بيدرو ليست سوى كومة من الحجارة الرمادية.

ـ نصف الحجارة مفقود... لأن أهل الجزيرة يستخدمونها لإصلاح بيوتهم.

ـ الشيء نفسه يحدث في كل مكان، عندما يتهدم بفعل الزمن.

فضحك:

ـ البعض منها استخدم قذائف، فحين كانت حمم المدافع تنفد من المدافعين، كانوا يستخدمون الحجارة لرميها على الغزاة وردهم إلى البحر.

ـ أكانوا يربحون الحرب دائماً؟

ـ ليس دائماً. فالجزيرة احتلها القراصنة البرابرة أكثر من مرة، وبعض من أسلاف العائلة أخذ رهينة لقاء فدية. هذا بالنسبة للرجال، أما النساء فكن يلقين مصيراً مذلاً. سيدة القصر لم تكن تعامل بأحسن من الفلاحات. في إحدى الغزوات أسرت للأمير رافاييل سبيراس ثلاث بنات، ما عرف عنهن شيئاً.

فقالت ببرود لاذع:

NOOR

ـ أظن أن قليلاً من الدم البربري ما يزال يعيش حتى يومنا هذا.

فرمى بيدرو رأسه إلى الوراء ضاحكاً:

ـ لا تخافي سيسمع عنك العالم ثانية. أما مصيرك فسيكون بالسوء الذي تختارينه أنت، ثم، لماذا تجبر امرأة على كل شيء بينما اغواؤها سيكون أكثر فائدة لك؟

ـ على فكرة... لم تفسر لي ما سبب وجود تمثال النمر عند الرأس الأرضي في حديقة القصر.

ـ ومتى سنحت لي الفرصة؟ فحين وجدت لك الوشاح وعدت كنت في منتصف الطريق إلى المنزل مع ماثيو... لماذا لم تسأليه أن يقص عليك تاريخه؟

فردت بارتباك:

ـ تحدثنا عن أشياء أخرى.

ليتها لم تثر الموضوع، لكنه هز كتفيه قائلاً:

ـ المنحوتة صنعها نحات محلي بعد استقرار أول أمير لعائلة سبيراس في كاستاريوس. وكان هو أول من نظم أهل الجزيرة في دفاعهم عنها قبل بناء القلاع... وكان التمثال تكريماً لانتصاره الأول ضد بعض الأعداء... أو هكذا تقول الأسطورة. فيما بعد، وصلتنا أساطير أخرى.

وضحك... فسألته بلهفة:

ـ مثل ماذا؟

ـ اوه... إنها أساطير رومانسية جداً عزيزتي. أهل الجزيرة كانوا مضطرين لطلب الاذن من السيد للزواج. وعندما تتزوج الفتاة كانت تعلق اكليل عرسها على براثن التمثال عرفانا بجميل «نمر الجزيرة» نفسه.

ـ أظن هذا أمراً ساحراً.

ـ لكن العادة هذه فسدت فيما بعد، عندما عُرف أن بعض النساء كن يعلقن أكاليل من الزهور فقط كي يجذبن السيد إليهن... وتدريجياً أصبح من المعروف أن أي فتاة تعلق اكليل زهر على التمثال تكون في الواقع تعني «أنا لك... إذا أردتني» وسرعان ما أخذ الأهل يراقبون بناتهن لئلا يقتربن من التمثال.

فابتسمت:

ـ أظن أن هذا أصل القول الذي سمعته «فتاة مناسبة للنمر».

ففحك:

ـ بكل تأكيد يا عزيزتي.

الحصن التالي كان في وضع أفضل بكثير، فما زال يحتفظ ببنائه.

أوقف بيدرو السيارة على جانب الطريق ثم سارا عبر العشب المرتفع، ورائحة اللافاندر، والورد البري، وزنابق العسل تفوح في كل مكان، وفراشات حمراء كبيرة كانت تحوم وكأنها براعم أزهار تتحرك في ريح غير ظاهرة.

أراها بيدرو المكان الذي كان يطلق منه المدافعون النار على الغزاة، وقال:

ـ في وقت من الأوقات كانت تحتل كل رأس بارز من الأرض في هذا الجانب من الجزيرة حامية عسكرية. والقصر نفسه كان قلعة محصنة... وكان العسكر عندما تهدأ الأمور يجلسون هنا، كما سنفعل، لتناول طعامهم، ولعب الشطرنج أو الورق أو...

ومال برأسه نحوها وهي تمد البساط ليجلسا عليه:

ـ أو ليغازلون حبيباتهم.

NOOR

ابتعدت روندا مجفلة، وقالت ساخطة:

ـ لا أظن هذا... فكل النساء في القرون الوسطى كن يختبئن من الغزوات كما يختبئن اليوم من الغارات الجوية.

فتنهد:

ـ أنت لست رومانسية يا عزيزتي.

ـ ربما لأنني لا أحب أن أجبر على الحب بناء لأمر.

فقال مجفلاً:

ـ لا يمكنك التفكير هكذا!

ـ لا يمكنني القول؟ أنا أعرف أنني لا أجلس في الشمس آكل الدجاج وأشرب المرطبات إلا لأن ابن عمك قرر أنها الطريقة الفضلى لابعادي عن القصر بضع ساعات، وذلك لسبب خاص به؟ ما هو يا ترى؟ زائر خفي آخر، يصل على طائرة هليوكوبتر خفية أخرى؟

فانفجر ضاحكاً:

ـ مرحى لك روندا! أنت فتاة رائعة... لا عجب أن تشغلي بال ماثيو وهو غارق في العمل. أنت محقة بالطبع... فأنا كُلِّفت بابعادك عن القصر لفترة. لكنني اؤكد لك أن لا أوامر لدي بمغازلتك... فهذا كان من بنات أفكاري الخاصة.

فقالت بسرعة:

ـ هذه ليست أفكاراً جيدة بيدرو.

ـ ولماذا؟ الشمس دافئة، والهواء عليل، ونحن وحدنا، فحبيبك الانكليزي على بعد مئات الأميال عنك، ما لا يعرفه لن يأسف عليه.

كادت تقول إن ما يفكر فيه بيرس هو آخر ما تفكر فيه، لكنها

آثرت أن يعتقد بيدرو أنها ما زالت على ولائها لبيرس بدلاً من أن يفتش عن الدافع الحقيقي، ويكتشف الحقيقة المؤسفة. وتمنت من كل قلبها لو أن غزل بيدرو يعني شيئاً لها، أو أنه يخرجها من إحساسها المستوحش، الطاغي على عاطفتها... إنه شاب جذاب سيصبح حبيباً رائعاً لأية فتاة... لكن للأسف، لن يلقى الاستجابة التي يسعى إليها منها.

ـ ما الأمر روندا؟ أنت لست باردة العاطفة، شفتاك وعيناك تقول العكس... ألا أعجبك؟

ـ لا... بالعكس تعجبني... لكنني... مخطوبة و...

ـ هذا ما قاله لي ماثيو، لكنه قال كذلك إنه لا يصدق بأنك تحبين ذلك الرجل... لماذا يظن هذا روندا؟ هل أعطيت ابن عمي النبيل سبباً للشك في مشاعرك نحو خطيبك؟

ـ لا! فلقد قلت لك ما هو شعوري نحو ماثيو.

ـ وما دخل الكلام بالمشاعر؟ بإمكانك قول ما تشائين لي، لكنني رأيت نظرة عينيك، وتورد بشرتك، وهذا ما يوضح بأبين من الكلمات أنك تحتاجين إلى الحب؟ وبما أنني عرفت الآن أن لا علاقة لي به... اسأل نفسي: لمن حبك إذن؟ ولا أحب الرد الذي يبرز إلى ذهني.

ردت محتجة، مع علمها بضعف حجتها:

ـ أنت تتخيل الأشياء، فأنتم هنا تعتقدون أن كل النساء سواسية... يبحثن فقط عمن يحبهن. أما أنا فكل ما أريده هو الابتعاد عن هذه الجزيرة والاستمرار في حياتي العادية.

فضحك:

ـ وما قيمة الحياة دون حب؟ احتجاجك لن يخدعني عزيزتي،

NOOR

وأنا آسف، لأنك غبية!

فواجهته روندا بتكبر:

ـ لماذا؟ لأنني رفضت غزلك؟ من بين كل النزوات...

فقاطعها نافذ الصبر:

ـ لا... لا... بل لأنك تريدين حب ماثيو. كنت أظن أن لك كبرياء يمنعك من القبول بأن تكوني «هدية للوحش». فقد نال ما يكفيه من الهدايا، وإلا لماذا تظنينه أرسل بطلبي؟

أحست روندا بالتصلب، وبدا لها صوتها يجيء من البعيد:

ـ أتحاول القول إنه سلمني لك، كأنني علبة هدية لا يرغب فيها؟

فتنهد:

ـ ليس بالضبط... فأنت لست كمعظم الفتيات اللواتي سعين وراءه... أنت تريدين منه أكثر من ذلك، أنت تريدين خاتم زواج. لكنني أقول لك عزيزتي، أنت تحلمين بالقمر... إنه لم يتورط مع امرأة إلى هذا الحد بعد. ثم أنت ابنة رجل يدور معه في الفلك نفسه، لذا يجب أن يكون حذراً.

سألته بحذر:

ـ أفهم من هذا إذن، أن ماثيو أرسل بطلبك كي يمنعني من أن أسبب الاحراج له؟

فتفرس في وجهها بلطف:

ـ وما غير ذلك؟ أنا آسف عزيزتي... لكن رغم جاذبيتك التي لا تُنكر، فعلاقة معك أمر قد لا يستطيع حتى ماثيوس سبيراتوس تحمله. فالثمن الذي قد يضطر لدفعه سيكون غالياً.

ـ ألاحظ أنك لا تشاركه تردده.

ـ لأنني أعتقد أننا سنسعد معاً. صحيح أن ليس لي ثراء ماثيو، لكنني بعيد عن الفقر، ووالدتي سترحب باستقراري... فهي ترغب في الأحفاد.

ـ أتطلب يدي للزواج؟

ـ أظن الوقت مبكراً على هذا الطلب روندا، لكنني آمل يوماً ما أن تسمحي لي بالحديث مع والدك.

لولا غضبها وتألمها لتأثرت برسميات حديثه... لكن والأمر كما هو، أبعدت يده عن ذراعها... لكنها لاحظت أنه يحدق فيها قلقاً. فأجبرت ابتسامة بالظهور على شفتيها المرتجفتين، محاولة ابعاد عذاب قلبها عنه.

لا عجب إذن أن ماثيو ابتعد عنها بسهولة ليلة أمس... فقد اتهمها بالتلاعب مع العواطف... لكن أكان هو حقاً أفضل منها؟

بعد ان انتهى الطعام، وارجعا كل أغراضهما إلى سلة النزهات واودعاها السيارة، تابعا مشوارهما على طول الساحل، حيث راح بيدرو يشير لهما الى أجزاء أخرى من الحصون. ضحكا وتبادلا الثرثرة كما كانا يفعلان من قبل. لكنها أحست ببعض التراجع بينهما لم يكن موجوداً وندمت على خسارتها رفقته الطليقة التي ساعدتها كثيراً على التخفيف من عبء إقامتها الجبرية على الجزيرة.

اعتمت غيوم سوداء السماء، وأصوات رعد بعيد أرسلتهما على عجل إلى القصر. عندما بدأت تنهمر أولى القطرات كانت أبواب القصر على وشك أن تنفتح بصمت لتسمح لهما بالمرور.

توجهت روندا رأساً إلى غرفتها مدعية الصداع، واستخدمت

NOOR

العذر نفسه عندما دخل توماس يدعوها إلى العشاء، مبدياً قلقه لما رأى من شحوب على وجهها. فأسرع ليحضر لها إبريقاً زجاجياً من العصير المثلج... وحبوب مضادة للألم. فيما بعد أحضر لها صينية طعام، من مرق اللحم واللحم المطبوخ بالبهارات والأعشاب، فتناولت منه أكثر مما كانت تظن أنها قادرة. ورفضت تناول قطعة الكاتو الدسمة بحجة حماية جسدها من السمنة... فقال توماس:

ـ لكن الآنسة بحاجة لبعض الوزن... في بلادي نحب النساء مستديرات.

تذكرت أنه ليس يونانياً فسألت:

ـ أين هي بلادك توماس؟

فبدا الأسى على قسماته السمراء للحظات:

ـ ليس لي بلاد الآن آنسة. فموطني هنا مع السيد.

أخفضت نظرها إلى الصينية وسألت بصوت منخفض:

ـ هل الآنسة روموس مستديرة الجسد؟

ـ آنسة روموس؟ لها جسد «فينوس»... لكن هذا، الآن... لكن ما قد تبدو عليه بعد عشر سنوات، فعلمه عند الله.

وأخذ يضحك... فتنهدت وهي تتناول حبتان من الدواء الذي أحضره لها للصداع. كانت السماء في الخارج كئيبة متجهمة... تلمع بأنوار برّاقة من البرق الذي يرافقه الرعد المزمجر من بعيد، والذي راح يدنو رويداً رويداً ليصبح صوته أعلى... استحمت سريعاً ثم أوت إلى الفراش، آملة أن تساعدها الحبوب المسكنة على النوم، رغم العاصفة.

استيقظت مذعورة، فوجدت الغرفة مشعة بأنوار خاطفة للبصر

وأحست بأن صوتاً فوق رأسها ينبىء بأن سقف القصر بدأ يتداعى... فهمت الآن ما أيقظها منذ تركت النوافذ مفتوحة قبل أن تغفو، فدخل المطر إلى أرض الغرفة عبر القضبان الحديدية.

نهضت من السرير لتقفل النوافذ، ثم تناولت المصباح اليدوي وأحضرت ممسحة من الحمام جففت فيها الماء من أرض غرفتها... أكملت هذه المهمة وأعادت الممسحة إلى الحمام... وعندما كانت تعود نظرت إلى ساعتها على ضوء المشعل، فإذا هي الثانية صباحاً. إذن لقد اعطتها الحبوب بعض الراحة، لكن المشكلة الآن أنها صحت ولم تعد تشعر بالنعاس. لو أنها الآن الشخص الوحيد الصاحي في المنزل، فهذه هي فرصة ذهبية لتلقي نظرة على المكان دون إشراف بيدرو. قد تدخل إلى مكتبة ماثيو وتستعيد جواز سفرها وأوراقها الأخرى... لكنها ترددت، فلا وسيلة لديها تخولها مغادرة الجزيرة، لكن على الأقل ستكون هذه خطوة إلى الأمام باتجاه استعادة حريتها واحترامها لنفسها.

وقفت في أعلى السلم، مصغية بانتباه مع أنها لم تكن تسمع سوى صوت العاصفة، فقد كان لديها إحساس غريب بأن هناك من يراقبها، من مكان قريب... لا... لا يمكن أن يكون هناك أحد، وإلا لتحداها وأعادها إلى غرفتها. لكن الإحساس هذا كان مستمراً بعد أن وصلت إلى الردهة في الطابق السفلي، فتطلعت إلى الرواق العلوي فوق الردهة.

سارعت راكضة، تقريباً، عبر الردهة إلى باب مكتبة ماثيو، حيث أطاعتها الأكرة بسهولة، فتسللت إلى الداخل وأغلقت الباب وراءها مستندة إليه للحظات كي تنظر من حولها. لم تصدق ما مر

NOOR

بها من أحداث أو زمن منذ استيقظت فرأت ماثيو جالساً إلى طاولته تلك الليلة.

تقدمت نحو الطاولة مترددة، وبدأت تفتح أدراج الطاولة التي كانت محتوياتها عارية... فلا شيء فيها يدل على ماذا، أو من، تخفيه عائلة سبيراس في القصر، لكنها لم تكن تتوقع أن تجد شيئاً هنا. لكن، لا أثر كذلك لجواز سفرها. حتى الملف الذي أراها إياه من قبل لم تجده. أقفلت آخر دُرج متنهدة. ثم أخذت تدير نور المصباح اليدوي يمنة ويسرى.

أحست بالرهبة من هذه المكتبة الرسمية، وأحست بالحاجة إلى حمى غرفتها ثانية. فخرجت إلى الردهة متجهة إلى السلم... لكن، في منتصف الطريق ترددت مرة أخرى... فهناك بين هذه الممرات المتشابكة، يقع ذلك الباب الموصد... وهذه أفضل فرصة لتجد ما إذا كان ما يزال كما هو، وإذا لم يكن، فماذا يقع خلفه.

أكملت طريقها إلى الرواق المحاذي لأعلى السلم، وانعطفت إلى الممر الواقع قبالة غرفتها. فلو أرادت يوماً أن تقنع أية سلطات بأن ماثيوس سبيراتوس يخرق القانون، فيجب أن يكون لديها دليل، وسيكون لها هذا الدليل رغم كل المخاطر.

حبست أنفاسها عندما عرفت أنها مضطرة للمرور عبر جناحه لتصل إلى ذلك الباب، ومرت ببطء حافية القدمين، ووصلت إلى الباب ذي القناطر المغطى بالستائر المخملية القرمزية. الباب ما يزال مقفلاً... فجأة شح نور المصباح في يدها وانطفأ. فوقفت جامدة في الظلام، تنتظر لمعان البرق التالي لتحدد طريقها، ثم

مدت يدها إلى مقبض الباب وادارته بسهولة، لكنه لم ينفتح.

حاولت مرة أخرى لكن محاولتها كانت عقيمة، لا جدوى منها، عندئذ عادت إلى الممر الرئيسي... إذ لم يبق أمامها سوى العودة إلى الفراش. لكنها لما لاحظت أن شيئاً ما يتحرك أمامها تمنت لو أن المصباح لم ينطفىء، كان الظل غريباً أشعرها بأنها مراقبة.

عبر الظلمة... وبعد دوي الرعد، أتتها زمجرة منخفضة لحيوان... وتحرك الظل، متقدماً نحوها، فأحست بقلبها يكاد يقفز من فمها... لكنه كلب... إنه مجرد كلب.

أحست بساقيها فجأة تضعفان فاستندت إلى الجدار تنتظر هدوء اضطراب الدم في عروقها. ومدت يداً مرتجفة تهمس برقة: تعال إلى هنا! لكن الكلب لم يستجب، بل وقف على أهبة الاستعداد، وعادت تلك الزمجرة المنخفضة التي جعلت الشعر في مؤخرة عنقها يقف!

فهمست ثانية:

ـ تعال... هيا أيها الكلب الطيب!

أصابتها الحيرة، إنها معتادة على الكلاب طوال حياتها، هي تحبها وتبادلها الصداقة.

ولمع البرق... وفي لمحة بصر عرفت لماذا لم يتقدم الحيوان... إنه نوع من الكلاب لم تشاهد له مثيلاً من قبل. شفته العليا مرتفعة لتكشف عن أنيابه الحادة المخيفة التي جمدت الدم في العروق. لم تشاهد مثل هذا الكلب إلا في الصحف، أو على التلفزيون التي تعرض وحشية كلاب الحراسة عندما يتعرض لها

NOOR

الناس.

ودوى الرعد مجدداً، لكن صوته لم يكن يقارن بصوت ضربات قلبها... والتصقت إلى الجدار تضع يدها على عنقها لتحميها، إذا ما هاجمها الكلب... أيمكن أن تكون هاتين العينين الحمراوين هما اللتان راقبتاها منذ خروجها؟ لا بد أن الكلب تبع خطواتها خطوة خطوة. وها هو الآن قد حاصرها في زاوية معينة، ويستعد للهجوم والانقضاض.

لمع البرق ثانية... فشاهدت عضلات الكلب تتحرك استعداداً للقفز. فصرخت... عاجزة من شدة الذعر في وقت ساده الظلام ودوى الرعد ثانية. وأعدت نفسها لملامسة فرو الكلب الخشن على جسدها.

لكن، بينما كانت صرختها تختفي، أحست بالجدار يتحرك خلفها، وبشخص يمسك بكتفيها، ويجرها إلى الوراء بعيداً عن الرعب الذي يتربص بها في الظلام... وإذا هي حيث النور الباهر يغشى عينيها.

●●●

٦ ـ أسوار وأسرار

ارتمت أرضاً على سجادة ناعمة، فدفعت نفسها بيديها إلى فوق، تحدق عبر شعرها الذي غطى وجهها إلى مائيوس سبيراس الذي دفع الباب بكتفه، في اللحظة المناسبة... فقد سمعت من الجهة الأخرى لحظة انغلاق الباب، صدمة عنيفة على الباب ونباح... تبعه نوبة نباح مجنونة.

بقي يستند إلى الباب لحظات، عيناه مغمضتان، ووجهه شاحب... كان يرتدي بنطلون بيجاما حريرية فقط، واستطاعت روندا أن تشاهد جسده مبللاً بالعرق.

بدأت فجأة بالضحك، فتصاعد منها صوت خشن متوحش متهدج جرح حنجرتها، وقالت بصوت متهدج:

ـ أنت خائف... لكن لا يمكن أن تكون خائفاً... نمر كاستاريوس يخاف... من كلب.

قفز جفناه إلى أعلى فكشفا عن وميض الغضب في عينيه... تقدم منها في خطوة واحدة، وأحست بلسعة راحة يده على خدها توقف الهستيريا التي أخذت تهدد بالسيطرة عليها. جمدت عيناها، ودارت الغرفة بها، بدوامة من النور واللون.

رفعها بين ذراعيه، وكأنها طفلة ثم حملها إلى الغرفة، وخدها

NOOR

مضغوط على صدره العاري، فأحست بدافع مجنون لتدير رأسها وتضع شفتيها على جسده... لكن يجب ألا تفعل هذا، ما دامت الدموع تملأ عينيها وتؤلم حنجرتها... لقد قرر مسبقاً ألا يتورط معها، ويجب أن لا تتركه يعرف أبداً أنها تعرف قراره...

وضعها بخشونة في الغرفة الرئيسية فوق سرير ناعم، له أربعة قوائم مرتفعة، فوقها ستائر مطرزة رائعة.

ـ ابقي هنا. (قال باقتضاب).

اختفى في الغرفة الخارجية، ثم سمعت صوت رجل غريب يتحدث بصوت مرتفع متوتر، كان صوت ماثيوالبارد الحاد يقطعه كالسكين.

الأصوات في الغرفة المجاورة أصبحت كالهمس، وكان من الأسهل لها أن لا تصغي بأذنيها لما يقولونه، حتى ولو كانت تفهم لغتهم. فبعد ما مر بها، كانت نعمة أن تسترخي هكذا... وتنهدت وهي تسمع صوت الباب الخارجي يغلق.

دون أن تنظر إلى الباب الداخلي عرفت أن ماثيو عاد إلى الغرفة، فرطبت شفتيها بلسانها تنتظر أن يكلمها...

ـ أنا بانتظار أن تفسري ما حصل.

بدا لها متعالياً كالجبال، وبارداً كالثلج، فردت:

ـ تفسير؟ لست أدري ما تعني؟

ـ إذن... أنت إما كاذبة... أو ساذجة بشكل لا يصدق، آنسة ستورم! لكن ربما لم أوضح قصدي جيداً: لماذا كنت تحاولين دخول الغرفة الموصدة في نهاية الممر المقابل؟ اوه... لا تحاولي الادعاء. أعرف أنك كنت هناك، لأن كل من يلمس الباب يلتقطه جهاز اليكتروني يطلق انذار في غرفتي هذه وفي مركز الحراسة

تحت.

راقب تصاعد اللون الأحمر على وجهها وضحك.

ـ يجب أن تكوني شاكرة هذا الجهاز آنسة، فقد أنقذ حياتك. كنت أفتح الباب عندما سمعت صراخك. لو تأخرت أيتها الحمقاء! أرأيت ما المخاطر التي يقودك إليها فضولك الذي لا ينتهي؟ كان يمكن لهذا الكلب أن يقتلك. أتعرفين هذا؟

فصاحت بهستيريا:

ـ ربما... لكن كيف لك أنت أن تترك كلاباً قاتلة تجوب القصر ليلاً كما تريد؟ أعترف أنني مخطئة باقترابي من هذا الجناح، لكنني أعتقد أنه كان من واجبك تحذيري حين تركت باب غرفتي مفتوحاً بأن هناك كلاباً مطلقة السراح كان يجب أن تعرف بأنني سأحاول اكتشاف ما في تلك الغرفة عاجلاً أم آجلاً.

ـ الكلاب ليست مطلقة لتجوب المنزل أيتها الطفلة الحمقاء. إنها عادة تقوم بدوريات في الأرض المحيطة بالقصر مع مدربيها، لكن هذا الكلب دخل المنزل هرباً من العاصفة، ومن مدربه. كان الرجل يوضح لي ذلك منذ قليل.

رطبت شفتيها مرة أخرى:

ـ هل... هل سيتعرّض إلى عقوبة؟ أعني... هل صرفته، بسببي...

فتنهد:

ـ أنت حفنة من التناقضات. حيناً تصرخين في وجهي لأن حياتك كانت في خطر وحيناً آخر تتوسلين لأجل سلامة الرجل المسؤول عن وضعك الخطر. لا... لم أصرفه، لكن ذلك الكلب سيبقى مربوطاً في سلسلته طالما هو فوق الجزيرة.

NOOR

نظر إليها متجهماً، ثم قال بقساوة:

ـ ما زلت انتظر تفسير ما حصل روندا. ماذا كنت تفعلين في ذلك الممر؟

أحست بأنها بدأت ترتجف، وبأن معدتها تعاني آلام الغثيان الحادة. فهمست:

ـ اوه... أرجوك! أظنني سأتقيأ.

ـ استلقي هادئة.

غاب قليلاً ثم عاد يحمل كوباً فيه قليل من سائل أصفر:

ـ اشربي هذا. لا تترددي فعائلتي لم تعتد تقديم السم لأحد.

عندما شربته، أحست بالشراب يلذع حلقها، ثم أحست بالانتعاش والدفء ينتشران في جسدها... فتمكنت من القول:

ـ آسفة.

ـ لا أشك في أسفك... فاكتشاف أمرك ليس بالأمر المستساغ، هذا عدا الصدمة التي أصابتك. وأنا آسف لأنني مضطر إلى استجوابك، لكنني يجب أن أعرف ماذا كنت تتوقعين مشاهدته في تلك الغرفة؟

ـ الجواب على لغز.

ـ تخاطرين بحياتك من أجل لغز...؟ لماذا؟

ـ لأنني ظننت أن الجواب سيساعدني على وضعك في السجن.

دارت عيناه فيها، بتعجرف وكأنهما عينا نمر وقال ببرود:

ـ ما علمت إنك عازمة حقاً على الانتقام.

ـ ليست المسألة مسألة انتقام... فأنا لم أساعد إنساناً على خرق القانون من قبل، ولا استطيع أن أفعل... مهما كانت...

وصمتت فجأة، وازداد احمرار وجهها، فقد أدركت أنها كانت على وشك أن تقول: مهما كانت مشاعري نحوك!

ـ ماذا كنت تقولين؟

ـ مهما كانت الظروف.

ـ ألا تحسين روندا أن البشرية أحياناً بحاجة إلى قوانين جديدة؟

أطرقت بنظرها لا تريد أن تقابل نظرته، وراحت أصابعها تعبث بحرير الأغطية الأزرق السميك:

ـ ربما... لكنني لست مغرورة حتى أحسب نفسي قادرة على صنعها.

ـ ربما لا تحتاجين إلى غرور، بل إلى قلب كريم محب. ألا تدعين هذا القدر حتى لنفسك؟

وأبقت رأسها مطأطئاً فلو أراد دليلاً على قدرتها على الحب فسيجده في عينيها. كان الصمت بينهما عميقاً، لم يقطعه سوى تنهده، النافذ الصبر:

ـ ثمة سر نخفيه في القصر آنستي، كما تعلمين لكنه ليس سري أنا، ولا أملك حرية الكشف عنه لك. لكن إذا كنت مقتنعة بأنك قادرة على إدانتي بجريمة ما، فستصابين بخيبة أمل مريرة... فلا أنا ولا أحد من أفراد عائلتي خرق أي قانون قد ندان عليه... أتظنين حقاً أنني قد أعرض أعمالي، واستقلاليتي واسمي وشرف عائلتي للخطر بارتكابي جريمة لا معنى لها؟

صمت لحظة وهو يضع يده على جبهته وكأنه يشعر بدوار:

ـ بِمَ تشكين في... اتساءل؟ أبالاختلاس... أم التزوير... أم سرقة الأرامل والأيتام؟ أنت غاضبة لأنني أجبرتك رغماً عنك على البقاء هنا... وما لا تفهمينه أن لا خيار آخر لي. ما إن

NOOR

أصبحت هنا حتى توجب عليك البقاء... واقسم لك أن الأمر هكذا بكل بساطة. لكن ما فائدة هذا لو كنت مصرة على اعتباري مجرماً.

أجفلت روندا لمرارة كلماته. وأحست بالراحة لها، لكن إن أظهرت راحتها هذه فستكون اعترافاً جريئاً بمشاعرها نحوه. وبدلاً عن هذا قالت بصوت خفيض:

ـ لك كل الحق في أن تغضب... فأنا لم أصدق بأنك تخفي جريمة ما، لكن هذا بدا التفسير الوحيد لما يجري هنا. وأنا آسفة على كل ما سببت لك من مشاكل. فمجيئي أصلاً إلى الجزيرة كان دون فائدة، فهمت هذا الآن، وها أنا لا أريد إلا أن أرحل من هذا المكان لأنسى أن هذا كله حدث.

ـ ليت الأمر سهلاً. فأنا ما زلت غير قادر على تركك. لك أن تعزي نفسك بأن سجنك لن يطول كثيراً.

أرادت أن تقول له إن هذا ليس عزاء لها، لكن كبرياءها منعها. لم تستطع منع تنهيدة قصيرة وهي تلف روبها حولها تستعد للوقوف:

ـ يبدو أن العاصفة مرّت، أليس كذلك؟ أظن أن من الخير لي أن أعود إلى غرفتي... شكراً لمساعدتك إياي... وآسفة على ازعاجك.

ـ هذه ليست المرة الأولى... ويجب أن تتوقفي عن الاعتذار روندا. فأنا لا أحب التذلل، إن هذا لا يناسب شخصيتك عزيزتي.

ـ يجب أن أذهب.

ـ يجب أن تذهبي؟

امتدت يده تتسلل فوق ذراعها تحت كم الرداء مداعباً بخفة.

ـ ربما من الأفضل لنا لو تبقين.

أدركت فجأة أن الوقت متأخر، وأنهما في عزلة وحدهما، وأنها ترتجف بضعف أمامه. راقبت وجهه يقترب من وجهها، وفكرت حالمة كم تعرفه... فها كل خط من خطوط وجهه محفور في كيانها إلى الأبد.

لم يمسك بها بيدين قاسيتين معاقبتين، ولا رماها فوق السرير، بل ضمها بلطف إلى صدره وترك يديه تداعبانها بحرية، لكن إلى حدود آمنة وبقي كذلك إلى أن تمتمت أخيراً محتجة تلف ذراعيها حول عنقه تجذبه إليها. ومع ذلك أحست بالخجل منه، ومن الحصار الذي فرضه على إرادتها. وسمعته يقول:

ـ ابقي معي حبيبتي... على الأقل لن يبقى بيننا أسرار.

لا أسرار... ! وهي من تخفي سراً لن تتمكن من قوله له... إنها تحبه، وإن لم يبادلها حبها فستخسر كرامتها.

تأوهت بشدة وابتعدت عنه، تلف ذراعيها حول عنقها الدامعتين فجأة.

ـ حبيبتي... ما الأمر؟ أخائفة أنت؟ لا تخافي، سأكون رقيقاً معك. اقسم أم أنك ما زلت لا تثقين بي؟

ـ لا علاقة للأمر بالثقة... أنا لا أحب أن يستغلني أحد.

ـ وكيف تم استغلالك؟

فصاحت:

ـ حسناً، ماذا تسمي هذا كله؟ لقد قلت بنفسك إنني لن أبقى هنا سوى لساعات. ألهذا تحاول مغازلتي؟ أتتأكد من أنني بعد رحيلي لن أطالبك بشيء.

أمسك وجهها بيديه وأجبرها على النظر إليه، لكن لمسته لم

NOOR

تكن تحمل أي حنان، فانكمشت من الغضب المتطاير من عينيه، وقال بصوت منخفض:

ـ يا إلهي! ما هذا الانطباع الذي كونته عني!

ـ إنه صحيح... أليس كذلك... اعترف... اعترف بأنك لا تريد التورط معي... وهذا ما دفعك إلى إحضار بيدرو. أليس لتبقيني بعيدة عنك؟... أليس لتتأكد من أنك لن تقع تحت... اغراء ما قد تندم عليه فيما بعد.

ـ إذا كانت هذه خطتي... فيجب أن تعترفي بفشلها... أجل... ما تقولينه صحيح جزئياً. لقد رغبت فيك طبعاً... ولو لم أفعل لما كنت من البشر... أعلم ان التوقيت غير مناسب... لكن...

ـ والآن أصبح مناسباً، كما أعتقد... ربما يجب أن يرضي هذا غروري، مثل فتيات الجزيرة اللواتي كن يتوددن إلى سلفك الأول... اتساءل كيف كان يتخلص من عشيقاته عندما ينتهي شغفه بهن، ويصبحن مصدر احراج له؟ لم يكن لديه هيلوكوبتر مستعدة لإجلائهن عنه، ربما كان يرميهن من فوق الصخور.

ـ إنه حل، يوجد الكثير من الأدلة لإثباته... لا تخافي عزيزتي. شغفي بك انتهى، ولن ازعجك بمطالبي. فأنا أرغب في امرأة بين ذراعي لا في طفلة قلقة مضطربة. أيمكنك أن تجدي طريقك إلى غرفتك، أم أطلب توماس ليرافقك؟

ـ اوه... لا... أرجوك لا... قد يعتقد بأننا...

ـ أجل... قد يعتقد... ألن يعتقد؟ وهذا ما يناسب وردة انكليزية تنوي مغادرة جزيرتي بالطهارة التي كانت عليها يوم جاءت. ما خطبك يا عزيزتي الجميلة؟ هل أنت خائفة من أن

يرفضك بيدرو إن علم بأمرنا؟ أنت مخطئة، فهو سيرحب بابنة السير تشارلز ستورم، وإن استغليتك.

شهقت ناحبة ثم ارتدت على عقبيها تركض كالمجنونة إلى غرفتها حيث رمت نفسها فوق السرير، تبكي دون أي رادع... عندما ستغادر الجزيرة لن تأخذ معها سوى ذكرى مرارته وعدائه.

نامت أخيراً وكان الدافع الإرهاق الذي ولّدته الدموع وعندما استيقظت وجدت أنها غرقت في النوم إلى الظهر... كانت الغرفة مشعة بنور الشمس حيث لا أثر لعاصفة الأمس، كان هناك شخص يقف عند اسفل السرير، ظنته توماس، ثم ودون أن تصدق، سمعت صوت امرأة ناعم يقول باليونانية:

ـ صباح الخير آنستي... أترغبين في شيء؟

فردت باللغة نفسها:

ـ أجل أريد بعض القهوة... أتتكلمين الانكليزية؟

فابتسمت المرأة:

ـ قليلاً آنسة... أنا انابيلا، لخدمة الآنسة.

ـ آه... هكذا اذن... آسفة انابيلا، تدهشني رؤيتك! هذا كل شيء.

فابتسمت انابيلا بحيرة وخرجت تحضر القهوة كما يبدو. فاستحمت روندا وارتدت الجينز وبلوزة عندما عادت إلى غرفتها وجدت صينية القهوة على طاولة قرب النافذة حيث كان توماس يحضر لها الكرسي.

ـ إذن كان هذا خيالاً!

ـ آنستي؟

ـ لا تتلاعب توماس، هل عادت الخادمات إلى القصر؟

NOOR

ـ أجل... هذا الصباح... لقد عدن بعد عطلتهن.

ـ عادت زوجتك كذلك؟

ـ أنا آنسة؟ لست متزوجاً.

وبدت عليه الصدمة، فتمتمت:

ـ أنت لعائلة سبيراتوس فقط... لا بأس توماس... ليس لما أقوله أهمية... لكن لماذا عدن، وفجأة؟

ـ ليس لي أن أقول آنستي... السيد هو من سيشرح لك.

ـ لا أظن هذا محتملاً.

ـ بالعكس آنستي... إنه ينتظرك في مكتبته... لكنه أمر بأن تُتركي نائمة حتى تستيقظي.

ردت بهدوء:

ـ شكراً يا توماس، سأنزل حالاً لتناول القهوة.

وكانت يدها ما تزال ترتجف عندما قرعت باب المكتبة، وسمعت ماثيوس سبيراتوس يأمرها بالدخول بنفاذ صبر.

تقدمت وهي تحس بعجز فبللت شفتيها:

ـ أردت الحديث معي؟

نظر إليها كمن ينظر إلى غريب.

ـ أجل... هذه لك كما أعتقد.

ورمى لها جواز سفرها وبطاقتها المصرفية والأوراق الأخرى التي كانت تفتش عنها ليلة أمس... فأخذتها مقطبة.

ـ لست أفهم.

ـ وماذا هناك لتفهمي؟ هذه لك. وأنا أعيدها. كنت أظن أنك ستسرين باستردادها.

حدقت فيه باستغراب متسائل:

ـ اذن أنا حرة في الرحيل؟

لم تستطع أن تتعرف في عينيه إلى الغريب أو إلى الرجل الذي أوصلها تقريباً إلى حافة الاستسلام، أو الذي أفقدها عقلها بإهاناته... وتردد في الرد:

ـ ثمة مشكلة صغيرة في التنقل في هذه اللحظات... وحين تحل المشكلة، بإمكانك السفر متى شئت.

فقالت ببطء:

ـ هكذا إذن...

أمسك ملفاً أشغل نفسه بتقليب صفحاته وكأنه يقول لها إن المقابلة انتهت. فاقتربت من الطاولة حتى لاصقتها، ثم اسندت يديها على سطحها ومالت إلى الأمام.

ـ كنت أظنك ستخبرني عما حدث... أعلم أن النساء عدن... وها أنت تقول لي إنني استطيع السفر ساعة أشاء. ومن الواضح أن كل شيء تغير منذ الأمس، وأنا اتساءل عن السبب. أعلم أنني فضولية مرة أخرى. لكن لا أظنك تلومني تبعاً للظروف.

تراجع في كرسيه يرفع نظره إليها:

ـ أجل. كل شيء تغير منذ الأمس... ولم يعد هناك سبب يحول دون أن تعرفي كل شيء.

التقط صحيفة عن الطاولة ورماها نحوها... في صفحتها الأولى عناوين بارزة، تطلعت روندا إليها وإلى الصورة المرفقة بحيرة. إن الوجه في الصورة مألوف لديها، لكنها لم تستطع التعرف إليه حتى بدأ ماثيو يصفر لحناً. عندها تذكرت... اللحن هو للرجل الذي رأته من نافذة غرفتها والصورة كذلك. لكن

NOOR

الصحيفة لم تكن انكليزية، مما يعني أنها لن تفهم منها شيئاً، فأعادتها إلى الطاولة تهز رأسها وتنظر إليه بحيرة.

ـ اسمه اندرياس غوزييف... لا يهمنا مكان ولادته، لكنه كان حتى تاريخ قريب مواطناً سوفياتياً. وهو عالم رفيع المستوى. كانت حكومته تثق به فسمحت بحضوره مؤتمراً علمياً في أثينا.

تذكرت روندا عندئذ المقال الآخر الذي قرأته في الصحيفة فوق المركب «سيغال» فشهقت:

ـ اللاجىء؟

ـ كنت تعرفين إذن. أتفهمين الآن لماذا لم يسمح لك بمغادرة الجزيرة؟

ـ لكنني ما علمت أنه هنا... وكيف لي هذا؟ وأنا ما جئت إلى هذه الجزيرة لهذا الهدف.

فرد بهدوء وبرود:

ـ اوه... اصدقك. فأنت ما أتيت إلى هنا إلا لأنه حُرّم عليك القدوم. لقد جاء ذلك الرجل إلى هنا ليلتجىء. رجل خائف يبحث عن لجوء سياسي، خائف من أن يقتل قبل أن يوصل المعلومات التي جاء بها معه.

ـ ولمَ لا؟ أهناك وسيلة أفضل لاسكاته؟ لقد أوضحت لنا السلطات الانكليزية والاميركية التي كانت تهتم بأمره، أن هناك مؤامرة لاغتياله. وما كان أمامنا إلا السرية... لذا أحطناه بهذا الستار الأخير.

ـ الذي اقتحمته أنا.

ـ صحيح... أتفهمين سبب منعك من السفر. ما كان ذلك إلا لسلامتك وسلامة السيد غوزييف.

ـ ألهذا قمت بإجلاء النساء جميعهن عن الجزيرة؟

ـ بل لقد رحلن قبل وصوله، والأمر عادي لا كما ظننته غريباً... فليست هي المرة الأولى التي تتمتع فيها مجموعة النساء على حسابي بعطلة عند العديد من اقربائهن على البر الرئيسي.

ـ والآن انتهى كل شيء؟

ـ أجل... مشكلته كانت عويصة متشابكة لكنها انتهت أخيراً. غادرنا عند الفجر مع حراسه إلى حياته الجديدة في أميركا.

ـ لكنني ما زلت لا أفهم، لماذا أحضرتموه إلى هذا المكان بالذات؟

فالتفت ماثيو إلى الباب:

ـ اخبرها يا توماس.

استدارت بدهشة فرأت الرجل ينتظر بالباب.

ـ اللاجىء هو عمي آنستي. كنت محظوظاً عندما هربت منذ سنوات بعيدة. وكان الأستر سبيراس، والد سيدي، قد أحسن وفادتي ورعايتي. كان عمي ألمع أفراد العائلة، فأخذوه ليعمل معهم. وما كنت أظن أنني سأراه ثانية، حتى السنة الماضية عندما استلمت منه رسالة. رسالة عادة تتحدث عن أيامنا الماضية وتطلب مني الرد. وبدأنا نتراسل ونحن نعلم أن كل رسالة مراقبة. ثم وصلت رسالة، وظننته جن. تحدث عن أشخاص لم يكن لهم وجود. أعاد ذكرى أحداث لم تقع. ثم فهمت... عندما كنت صغيراً كان يكتب لي من الجامعة وأحياناً للمزاح يخترع «شيفرة» وكان هذا سرنا.

ـ والرسالة كانت «شيفرة».

ـ أجل آنستي. عندما حللتها كما كنت أفعل صغيراً، وجدت

NOOR

أنها استغاثة نجدة. كان يعلم أنه سيحضر المؤتمر في أثينا، وقد تكون هذه فرصته الأخيرة للهرب.

وابتسم مردفاً:

ـ عرفت أن السيد سيساعدني... ووافق على لجوء عمي إلى الجزيرة فترة. وقرر إعلان حال طوارىء عسكرية خلال وجوده هنا. لقد كان عمي مهماً جداً آنستي.

ـ وهو الآن سالم؟

ـ أدعو الله... أن يكون كذلك.

ـ وكذلك أنا توماس. الجيد ما ينتهي نهاية جيدة، وأنا سعيدة لك توماس، وأعرف الآن سبب عدم اجابتك عن اسئلتي لقد كنت مزعجة لك.

فابتسم بحرارة:

ـ اوه... لا آنستي... لم تزعجيني قط.

ـ لقد انتهى أمر السر إذن، ولا شيء يبقيني هنا، إذن من الخير أن ابدأ بتحضير حقائبي... هل بيدرو هنا؟ أريد توديعه.

ـ لا... لقد طار هو الآخر هذا الصباح ليستقبل ضيفاً. لكنه سيعود إلى العشاء، أتخططين للسفر اليوم؟

ـ لا أتصور هذا... فأنا على كل الأحوال اعتمد عليك في سفري.

فانحنى لها ساخراً:

ـ لو كنت مكانك لما تعجّلت في تحضير حقائبي... ربما بعد مشاهدتك ضيوفي قد تغيرين رأيك.

كانت متجهة نحو الباب، فتوقفت تبتعد عنه وقد شحب وجهها:

ـ صدقني سيدي... أنا لا أريد إلا أن أغادر الجزيرة وأن ابتعد عنك... ولن أبقى هنا لحظة أخرى... اؤكد لك.

فعاد إلى كرسيه، وهي تفتح الباب:

ـ حسن جداً.

ثم تذكرت أمراً بشأن جواز سفرها:

ـ بالمناسبة سيدي... أين كان هذا؟

ـ ولمَ السؤال؟

ـ اوه... لأنني لم أجد له أثراً عندما فتشت طاولتك ليلة أمس.

انتظرت متوقعة انفجار غضبه إلا أنه عندما تكلم كان صوته ناعماً ومتزناً:

ـ احمدي ربك أنني سأتركك تغادرين الجزيرة دون تنفيذ عقوبة الجلد التي تستحقينها.

وهربت روندا.

في غرفتها وجدت انابيلا ترتب السرير، ثم التقطت ثوب النوم الحريري عن الأرض وأخذت تتلمسه بلهفة ووميض الاعجاب يطل من عينيها فقالت لها:

ـ أرجوك خذيه.

وأخذت تسكت الاحتجاجات التي تدفقت من فم انابيلا:

ـ أرجوك... أنابيلا، خذيه، فأنت بهذا تسدين لي معروفاً.

حين خرجت فيما بعد لمحت انابيلا تستعرض ثوب النوم أمام رفيقاتها اللاتي كن يضحكن ربما معلقات على ردة فعل زوجها عندما يراها فيه. فتنهدت ثم خرجت نحو البركة.

السباحة أنعشتها، لكنها لم تبعد عن قلبها الألم الذي

NOOR

يعانيه... وتذكرت وهي تجفف جسدها، ذلك اليوم عندما جلست على الصخرة عند الشاطىء المهجور تتخيل أنها حورية البحر... كانت يومها سعيدة... فتأكدت مما تريد من الحياة. أما الآن فلم تعد واثقة إلا من شيء واحد هو أن عليها التقاط شظايا نفسها المحطمة، والانطلاق من جديد.

لقد سمحت لنفسها بالوقوع في حب رجل أظهر لها بوضوح أنه يهتم بها جسدياً لا عاطفياً. إنه أمر يحدث لآلاف الفتيات في أنحاء العالم كله، حدث من قبل وسيحدث إلى الأبد... لكنها ستتمكن من تجاوز محنتها بسهولة... أما ألمها فلن تستطيع كبحه.

ثم لم تعد وحيدة، لكنها لم تدرك ذلك إلا متأخرة، أيكون السبب فتح البوابة الحديدية التي تقود إلى باقي الحديقة، فهي حين رفعت رأسها، وجدت ماثيو يقف عند الطرف الاخر من البركة يراقبها... كان عليها أن تصبر على نظراته وأن تحضر نفسها لسخريته. فما كان منها إلا أن أغمضت عينيها لئلا ترى ذلك الواقف طويلاً، بعيداً عن متناول يدها.

حين استمر الصمت طويلاً، فتحت عينيها فإذا هي وحيدة. فتساءلت بجنون عما إذا كانت تحلم بوجوده.

هبت واقفة ترتدي الجينز فوق البيكيني الجاف تقريباً. ثم سمعت من بعيد صوت اقتراب هلوكوبتر. بيدرو قادم، برفقة ضيوفه ومن المفترض أن تنضم إليهم على العشاء، ولأجل كرامتها يجب أن تقوم بعملية انقاذ صعبة لمظهرها قبل أن يحدث هذا. دست قدميها في حذائها ثم قفلت راجعة إلى القصر. وحطت الطائرة على سطح القصر الواسع، ثم طارت، وهذا سر غامض آخر

اكتشفته.

كانت تحاول استعادة شتات تفكيرها عندما سمعت من يناديها، ثم شاهدت بيدرو على الشرفة.

ـ عزيزتي!

وكاد يطير فوق درجات السلم ليصل إليها؛ ووضع يديه على خصرها، وقبلها على خديها. ثم عانقها، لكن العناق العفوي هذا ضايقها فأبعدت نفسها عنه بسرعة واحتجاج.

ـ رونـدا... أهـذا لطف منك بعد أن تحملت المصاعب لأجلك؟ أنا مرهق من السفر، وأنت باردة معي.

فابتسمت ببرود:

ـ آسفة بيدرو... لم أنم ليلة أمس جيداً بسبب العاصفة و...

ـ إذن تعرفين كل شيء الآن عزيزتي. كنت أتمنى رؤية وجهك عندما عرفت الحقيقة. كنت آسفاً جداً لخداعك... لكنك كنت ظريفة في تصورك أن ماثيو مجرم... وهذا ما لم يسعده، لدي مفاجأة أخرى لك.

حاولت أن تسكته عند وصولهما إلى أعلى السلم:

ـ بيدرو، الوقت متأخر للمفاجآت... فأنا أود السفر هذا المساء بعد العشاء... ألم يخبرك ابن عمك ؟

ـ أؤكد لك أنه لن يدعك تسافرين، إذ لا يمكنك فعل هذا في الوقت الذي سنبدأ فيه التمتع؟ سأريك الجزيرة وهي في أفضل حالاتها أخيراً... أنت لم تشاهدي بعد مصنع النسيج في البلدة، أو مصنع السيراميك. ولم تتزلجي على الماء... لا... لا يمكنك السفر الآن.

أمسك بيدها جذلاً وجرها نحو أبواب الصالون الزجاجية وصاح

NOOR

قائلاً:

ـ قل لها سيدي... أخبرها أنكما ستتمتعان بأشعة الشمس معاً، وبضيافتنا.

فتشت عينا روندا الغرفة بارتباك فبدت معتمة بعد نور الشمس القوي، لكنها لم تخطىء أبداً معرفة الجسد الطويل الذي هب عن مقعد وثير، وتصارع الذهول والطفولة في نفسها... وأطلقت يدها وركضت إلى الأمام وصاحت:

ـ اوه أبي...! لا استطيع التصديق! أحقاً هذا أنت!

٧ ـ لا وداع أخير

كان صوت السير تشارلز ستورم، يحمل القسوة والعاطفة وهو ينحني ليقبل ابنته قائلاً:

ـ أجل... هذا أنا حقاً يا روندا.

ـ لكن كيف عرفت أنني هنا؟

ـ كنت أعلم طوال الوقت أين أنت بالضبط... لقد أبرق لي مائيو يخبرني لحظة وطئت قدمك الجزيرة وقد شرح لي فيها أنه مضطر إلى حجزك لئلا تتعرضي للخطر. وفيما بعد اتصل بي واقترح أن أنضم إليك هنا في إجازة قصيرة، بعد أن تهدأ الأمور.

ـ إذن أنت تعلم كل شيء؟

ـ لا... ليس كل شيء بالطبع. لكن صديقاً لي من وزارة الخارجية لمّح لي، والصحف امتلأت بأخبار هرب غوزييف...

وتحول صوته إلى متجهم غاضب:

ـ والآن، روندا... ماذا كنت تفعلين؟ لقد صُدمت ولم أسرّ لما سمعته من مائيو الذي، حاول جهده أن يبرر تصرفاتك... لكن ما من مجال للتهرب من الواقع: صغيرة، طائشة، أنانية، أفسدها الدلال... هذا كلام رائع أسمعه عن ابنتي الوحيدة. كنت قد تعمدت التعدي على أملاك الآخرين وأنت تعلمين ذلك. سرني أن بيرس ومن معه كانوا أعقل منك، وهذا يظهر أن فرداً من أفراد

NOOR

العائلة له حس بالمسؤولية واحترام الآخرين في حين أن ابنتي تفتقر إلى ذلك.

وجنتا روندا أصبحتا قرمزيتين تحت وطأة توبيخه، وسرّها أن بيدرو قد ابتعد خلسة عن الشرفة. ليتركها وحدها مع أبيها.

ـ أبي أرجوك، لا تغضب... أعرف أنني كنت حمقاء... لكنني لم أنجُ بسهولة من فعلتي هذه...

فابتسم السير تشارلز ابتسامة مختصرة:

ـ أنا واثق من هذا. فلن تتمكني من اركاع ماثيو سبيراس، كما فعلت بالشاب المسكين بيرس. لقد أصيب بصدمة، والعمة راحت تنوح في وجهي. هل استطيع الدفاع عنك؟ لقد صعبت الأمور كلها بتصرفك هذا.

أمسكت روندا ذراعه:

ـ أبي... قلت إنك دعيت للانضمام إلي، لكننا لسنا مضطرين للبقاء، أليس كذلك؟ لن اتأخر في تحضير حقائبي، لنسافر بعد العشاء...

نظر إليها والدها نظرة غضب واستنكار:

ـ نسافر؟ لم أقطع هذه المسافات كلها لاستدير وأطير عائداً من حيث أتيت! كنت أتطلع شوقاً إلى هذه الفرصة. فأنا لم أشاهد ماثيو منذ سنة أو سنتين. كنت أعرف والده بالطبع.

فشدت كم سترته:

ـ إذن، دعني أذهب وحدي.

ـ لن أسمح لك بالطبع، خاصة وأن ماثيو أحسن ضيافتك رغم ما سببت له من مشاكل. لم يكن هذا ما خططته لك...

وصمت، وكأنما ادرك أنه أفصح عن الكثير. فسألته بصوت

هادىء وهي تركز عينيها على وجهه المحرج:

ـ وماذا كنت ستقول أبي؟

ـ حسناً... الواقع أن ماثيو دعانا لزيارته والإقامة هنا قبل زيارتك غير الرسمية له... ولم أكن سعيداً برحلتك البحرية، لذا اتصلت به وطلبت منه مراقبتك أثناء وجودك في المنطقة. هو لم يوافق فحسب بل أصرّ على أن نحل عليه ضيوفاً بعد انتهاء الرحلة. كنت سأتصل بك لتنتظريني في كريت بدل العودة في المركب، مع الآخرين، وعند هذا الحد توليت بنفسك إدارة الأمور.

ـ إذن كنت تلاحقني خلال الرحلة؟

نظر إليها السير تشارلز بارتياب:

ـ حسناً... أنت ابنتي الوحيدة. ومن الطبيعي أن أقلق عليك. فأنتم أربعة فتيان تجوبون المتوسط وحدكم في مركب. والله وحده يعلم ما كان ينتظركم من مخاطر... وانظري ماذا حدث لك!

لاحظ شدة تأثرها، فوضع ذراعه على كتفيها:

ـ لن نتكلم عن الأمر بعد الآن، هه؟ سنسترخي ونتمتع. عرفت من ابن عم ماثيو أن ماثيو يخطط لإقامة حفلات خلال الأسابيع القادمة، وأقل ما يمكنك فعله، هو قبول ضيافته، والتصرف بلياقة. فلست مضطراً للاعتذار عنك ثانية.

رمت روندا والدها بنظرة متحدية، وقالت بهدوء:

ـ أنا قادرة تماماً على الاعتذار عن نفسي.

ـ هكذا إذن... هيا اركضي الآن وارتدي ملابساً تناسب العشاء. لا أريد أن أعرّف صعلوكة رثة الثياب إلى الآنسة روموس.

فارتجفت:

ـ من، قلت؟

NOOR

ـ الآنسة روموس، قابلتنا في أثينا... إنها شابة فاتنة... أنثى بكل ما للكلمة من معنى. يا للسماء فتاتي، تبدين شاحبة، لا بد أن ما مر بك كان محطماً للأعصاب. مع أنك أنت من جلب المشاكل لنفسك. أعتقد أن بضعة أيام من الراحة ستفيدك، هيا الآن، اذهبي.

في غرفتها وقفت تفكر في أن والدها لا يزال يعاملها كتلميذة مدرسة. فرغبت في أن ترتدي جيتزاً آخر للعشاء، لكنها لم تفعل. فلا فائدة من هدر طاقتها في مواجهات لا طائل منها، واختارت أفضل فساتينها وهو فستان طويل، قطني القماش بلون الجاد الأخضر، واسع الياقة ودون أكمام. أما ظلال العيون والكحل ففعلا بوجهها العجب، لكنهما لم يحجبا التعب عن عينيها. ثم وضعت أحمر شفاه مرجاني اللون.

كان توماس ينتظرها في الردهة، فقال لها:

ـ السيد يطلب انضمامك إليه في الشرفة.

أجبرت أعصابها على الاسترخاء عندما خرجت إلى نور شمس المساء حيث لاحظت وجود ماريا روموس... كانت طويلة، فستانها الحريري يلتف على كل جزء من جسدها الشهي. كانت تقف ملتصقة بمائيو، اظافرها مدهونة بلون الفستان الأحمر الكرزي نفسه، تتحدث إليه وتبتسم له بطريقة لا تترك لمن يراهما أي شك في نوع علاقتهما.

انضم بيدرو إلى روندا مبتسماً:

ـ روندا... عزيزتي... دعيني أقدم لك شراباً.

شكرته وتقدمت لتنضم إلى أبيها، الذي كان يقف عند طرف السلم العريض، ينظر إلى الأرض حول القصر. التفت مبتسماً

لها... ثم اتسعت بسمته عند وصول بيدرو مع شراب روندا. لاحظت بطرف عينها تحرك الأحمر الكرزي، فعلمت أن مائيو يتقدم مع رفيقته إليهم.

ـ ماريا، أنت لم تقابلي بعد الآنسة روندا ستورم.

تصافحتا وتبادلتا تحيات مؤدبة... ثم التفتت ماريا إلى السير تشارلز مبتسمة كاشفة بذلك عن أسنان صغيرة بيضاء.

ـ ابنتك سيدي؟ أنت لا تبدو كبيراً لتكون أباً لفتاة كبيرة.

كان في صوتها رنة مثيرة واضحة... فصرّت روندا على أسنانها بصمت... فالآنسة روموس تؤمن بمبدأ إصابة عصفورين بحجر واحد، تطري أباها وتغازله، بينما تحاول ابقاء روندا في صفوف الحضانة. التفتت لتضع الكأس الفارغ من يدها، فلاحظت أن مائيو ينظر إليها... ولاحظت كذلك التسلية على وجهه، فرفعت رأسها، وكأنها تتحداه، لكن في تلك اللحظة وصل توماس معلناً أن الطعام جاهز.

أظهرت ماريا روموس عرضاً فنياً بارعاً خلال العشاء، فغازلت مائيو والسير تشارلز، بل رمت أيضاً ببعض الاهتمام المثير نحو بيدرو. أما روندا فتناولت طعامها دون أن تتذوق لقمة منه. وعندما انتهى العشاء اعتذرت وصعدت إلى غرفتها.

بعد الغداء في اليوم التالي، تطوع بيدرو ليُري السير تشارلز أرجاء الجزيرة وكان على روندا أن ترافقهما فجلست في مقعد السيارة الخلفي على مضض، لكنها سرعان ما سحرت بفتنة مناظر الجزيرة... بقي بيدرو بعيداً عن الساحل هذه المرة، وانعطف بالسيارة إلى الداخل حيث المنطقة الجبلية. كانت سفوح الجبال المنخفضة غنية باللون البنفسجي من الخلنج وأزهار بنات الآس

NOOR

تقطعها أشجار الزيتون الخضراء الفضية، وغياض صغيرة من شجر البلوط والصنوبر.

أوقف بيدرو السيارة، ليسيروا عبر ممر بين الصخور فراحوا يتأملون الشلال، الذي قال عنه بيدرو إنه أحد أجمل بقاع الجزيرة.

مع أن السير تشارلز بدا معجباً حقاً بالمناظر، إلا أنه أبدى رغبة واضحة في الذهاب إلى بلدة كاستاريوس نفسها، ليرى ماذا تحقق من نجاح في مصنعي النسيج والسيراميك. وتمنت روندا البقاء هنا جارة القصر.

بلدة كاستاريوس كانت لا تزيد عن شارع شديد الانحدار يصل حتى أبواب القصر، ثم يتجه إلى الميناء. أوقف بيدرو السيارة عند أعلى التل وساروا إلى الأسفل على حجارة الشارع الخشنة المرصوفة. كانت معظم الحوانيت ملحقة ببعض البيوت... وكان البرتقال، والحامض، وعناقيد ضخمة من العنب المختلف الألوان تزيد من جمال ألوان الخضار البيتية المعروضة... أما رائحة السمك المعروض عند الميناء فكانت تتصارع مع رائحة الثوم وزيت الزيتون.

لم يكن هناك مركبات، بل حمير صبورة يحمل العديد منها حملاً ثقيلاً. وكانت أزقة صغيرة تتفرع من الطريق الرئيسية بين البيوت. حيث يتمدد الدجاج في التراب، حيث حبال الغسيل المليئة تتحرك ببطء... هناك سمعت أصواتاً تصرخ، وكلاباً تنبح وأولاداً يضجون... فبدت البلدة لروندا وكأنها استيقظت بعد سبات عميق، كان سببه غياب نسائها.

همس بيدرو في اذن روندا في غفلة عن أبيها:

ـ سيُجرى احتفال راقص في البلدة الليلة. فالرجال اشتاقوا للنساء.

كان لكلامه ولهجة صوته معنى... فاحمر وجه روندا، وذهبت أفكارها نحو القصر وسيده الذي استقبل مؤخراً امرأته.

رفضت أن ترافق والدها وبيدرو لزيارة المصنع، مفضلة البقاء في الهواء الطلق، فحذرها والدها من أن تضيع، فضحك بيدرو:

ـ تضيع هنا سيدي؟ لا مكان تذهب إليه... سنراك في المقهى على رصيف الميناء بعد نصف ساعة عزيزتي. سنجلس في الظل ونشرب المرطبات.

لم تستطع منع نفسها من الضحك لغمزته الكوميدية. ثم أخذت تسير في الشارع، تقف متأملة المعروضات المشغولة من الليف أو الصوف، والحقائب الجلدية الرائعة المصنوعة يدوياً. وعلمت أن للبلدة ماضياً سياحياً، لكن ماثيوس سبيراس يرفض أن يعتمد شعبها على الآخرين. ولقد قال لها بيدرو إن مصنع القماش يصنع البسط والقماش، إضافة إلى انتاج مصنع السيراميك، الذي يتم تصديره إلى الأرض الأم ليسد حاجات السوق.

شاهدت أمامها زحاماً، وعلمت أنها وصلت إلى رصيف الميناء. كان هناك جمع غفير من الناس معظمهم من الرجال، ووقفت تتأمل حبالاً ترمى من المراكب المتقدمة إلى الميناء، ونساء يحملن الحقائب، أو الأطفال.

ابتسامة حنان صغيرة ارتسمت على شفتيها وهي تراقب جمع الشمل المبهج بعودة المزيد من النساء إلى الجزيرة. يبدو أن للجميع من يستقبله، أما هي فقد غصت بإحساس الوحدة.

فجأة ابتعدت عن المنظر والدموع تملأ عينيها، لكن يداً على

NOOR

ذراعها أوقفتها عن الابتعاد. فرفعت رأسها فإذا أمامها ماثيو سبيراس يحدق فيها.

ـ ماذا تفعلين وحدك؟ ظننتك مع بيدرو ووالدك. أكنت وحيدة منذ الغداء؟

ـ لا... سأقابلهما في المقهى القريب بعد دقائق. وأنا بخير، شكراً لك. لا تزعج نفسك بأمري.

ـ قد لا تكونين الآن سجينتي آنسة... لكنك ضيفتي... أرجوك أن تنضمي إلينا.

نظرت إلى ما خلفه فوجدت ماريا روموس، شعرها الأسود الأملس محمي من الهواء بوشاح له لون فستانها الذهبي تجلس على طاولة فوق الرصيف خارج مقهى صغير.

فتراجعت:

ـ لا أريد التطفل...

لكن يده اشتدت على ذراعها وقادها نحو الطاولة. فرفعت ماريا نظرها والتمعت عيناها ترفق الفتاة الشابة بنظرة كراهية باردة.

ـ آنسة ستورم؟ ظننتك على الشاطىء مع بيدرو!

صوتها البارد كنظرتها جعل عينيّ روندا تضيقان بشكل خطر وهي ترد:

ـ هذا في الغد. أما اليوم فهو سيشتري لي دلواً ورفشاً.

فابتسمت ماريا دون أن يبدو عليها المرح:

ـ أمر مسل.

ثم وضعت ساقيها فوق بعضهما، وبدت في شكلها المبتذل تناسب أحد مقاهي الأرصفة في باريس أو روما، لا مقهى صغير في جزيرة... إنها مثل زنبقة استوائية نمت وأزهرت خطأ في أرض

صغيرة تنبت الخضراوات.

وبدأت ماريا تتحدث إلى ماثيو باليونانية، لكنه أوقفها برفع يده:

ـ استخدمي الانكليزية ماريا. وإلا لن تفهم روندا ما تقولين.

تفوهت ماريا بكلمات اعتذار، لكن نظرتها الحاقدة أفهمت روندا جيداً أنها ما كانت تريد إشراكها في حديثهما... لذا عندما وصل والدها وبيدرو شعرت براحة عارمة.

تحت غطاء الحديث الذي تبع وصولهما، استرقت النظر إلى ماثيو. فإذا به يجلس قبالتها. يبتسم وهو يصغي للسير تشارلز. في حين أن عينيه تحدقان في كأسه.

أحست بيد بيدرو تلمس ذراعها وتخرجها من التفكير في ماثيو:

ـ روندا... ما بك عزيزتي؟ أنت لم تكلميني كلمة طوال بعد الظهر.

فالتفتت إليه:

ـ آسفة بيدرو، لا أظنني في مزاج يخولني تبادل أطراف الحديث. أتعيدني إلى القصر؟

سرعان ما وافق فقفز يساعدها. عندها سألت ماريا بلهفة:

ـ هل الشمس قوية عليك؟ يا للطفلة المسكينة!... اقفلي النافذة في غرفتك واستريحي حتى موعد العشاء.

كانت لهجتها لهجة من يعد طفلاً بأنه إن طاع ما يقال له فسيسمح له بتناول العشاء مع الكبار... بينما كانت تحاول التفكير برد مناسب يوقف المرأة عند حدها، أمسك بيدرو بذراعها وسارع مبتعداً بها.

NOOR

حين ابتعدا قالت غاضبة:

ـ يا لتلك المرأة!

فضحك:

ـ يجب أن تعذريها... إنها تتحرق لتصبح الأميرة سبيراس. وتعلم أن الوقت ينفذ من بين يديها.

ـ أتظن أن ماثيو... قد يتزوجها؟

فهز كتفيه دون اكتراث:

ـ من يعلم؟ يجب أن يتزوج يوماً لينجب وريثاً... وماريا كانت... صديقة طيبة له مدة لا بأس بها. هما على الأقل لا يتوهمان وجود شعور ما بينهما. إنها تريد لقبه وماله. وهو يريد زوجة مزيّنة تغمض عينيها عن... عبثه.

ـ لكنني عرفت أن ماثيو... الأمير سبيراس، ما عاد يستخدم لقبه.

ـ هو ما عاد يستخدمه ولكن لماريا أفكاراً أخرى وقد تقنعه إذا تزوجا بالتفكير مجدداً في استخدامه.

ـ لماذا قلت إن الوقت ينفذ من بين يديها؟

ـ لأنها في الفلك الذي تدور فيه، لم تعد شابة لتبقى دون زواج... وعليها أن تستقر، لتبني مستقبلها.

ـ أليس لها مهنة؟

فانفجر ضاحكاً:

ـ ماريا؟ أتتصورينها تغمل عزيزتي وراء مكتب تكسر أظافرها فوق مفاتيح الة ما؟ لها حصة في دار أزياء باريسية، لكنها لا تقوم إلا بتأمين زبائن من محيطها للدار.

هزت رأسها متنهدة، تلف ذراعه حول كتفيها:

ـ لم التنهد يا صغيرتي؟

ـ كنت أفكر... هذا ليس وضعاً جيداً قد تجد المرأة فيه نفسها.

ـ لا تخشي شيئاً عزيزتي، ما عليك سوى قول كلمة وستتزوج ساعة تشائين.

فحرّرت نفسها منه:

ـ لا يا بيدرو... ما عنيت هذا. فأنا لا أريد الزواج الآن بل أريد بناء مستقبل مهني لي، أولاً.

ـ أواثقة من أنك لا تحلمين بأن تكوني الأميرة سبيراس؟ يا إلهي روندا... ألم أقل لك إن لا فائدة من التفكير بماثيو هكذا؟ لا تخدعي نفسك بأن تصبحي يوماً قادرة على تطويعه كزوج انكليزي مثالي. لقد حطم قلوباً كثيرة، وسيحطمك.

فأحنت رأسها:

ـ لا طائل من هذا الحديث... ابن عمك لا ولن يناسب خططي المستقبلية، أعدك بهذا.

بقي بيدرو محافظاً على برودة في الأيام التالية، لكنها بهذا تخلصت من محاولاته التغزل بها...

آخر الأسبوع، بدأت الحفلة في القصر بوصول أحد أثرى اصدقاء ماثيو، آل بابندوس وزوجته جينا وتواماهما البالغان السابعة عشرة من العمر. جورجيو بابندوس الشاب أخذ يتودد إلى روندا بشكل ظاهر، بينما أخذت اخته التوأم تلتصق ببيدرو، وهذا ما ناسب روندا تماماً.

سارت روندا، بعد الظهر مع السيدة تيران، إحدى الضيوف، وهي امرأة ممتلئة الجسم، جذابة، في أواخر الثلاثين، عاشت في

NOOR

لندن فترة زواجها، وهي تتوق لمعرفة ما إذا كانت كل محلاتها المفضلة، والمطاعم، لا تزال موجودة. وكان لهما حديث مستساغ غير متكلف. وما إن جابتا الحديقة ووصلتا إلى أطراف الصخور حتى كان الجميع متحلقاً حول التمثال... السير تشارلز كان يقف مع السيد تيران يدخنان السيكار وينظران إلى البحر يتحدثان بصوت منخفض، بينما جورجيو وبيدرو يفتشان عن حصوات صغيرة ليريا من يرميها أبعد إلى البحر.

كانت ماريا تستدير برشاقة إلى النمر الحجري، تدخن سيكارة. بدت ضجرة، ربما لأن ماثيو كان يجلس على العشب على بعد أمتار منها يراقب ليزا وهي تحاول صنع إكليل من الزهر البري النابت حولهم... وكان هاجسها الوحيد الأسطورة التي سمعتها.

رمت ليزا ما بيدها من أزهار صائحة بصوت يشبه مواء قطة:

- اووه... ! لن استطيع صنعه. روندا ألا تساعدينني؟

فتنهدت روندا وأذعنت ثم راحت تعلم ليزا السبيل إلى تجديل سيقان الزهور معاً بحذر، ثم ركعت على الأرض مع ليزا وقالت:

- لم تكن هذه الطريقة التي كانت تستخدمها الفتيات في العصور الوسطى أيام «نمر الجزيرة»، لكنها الطريقة التي أعرفها منذ الطفولة.

فتدخلت السيدة تيران، ناصحة الفتاتين بألا تقوما بهذا العمل وضوء النهار يشح شيئاً فشيئاً، فسارعت روندا تربط آخر سيقان الزهر بخيط ثم وضعته على رأس ليزا. فقالت لها الفتاة وهي تسحب الاكليل عن رأسها بعناية:

- اوه... لا روندا... إنه اكليلك ويجب أن تضعيه أنت. اخفضي رأسك قليلاً... هاك! أنت الآن كالعروس.

جذبت ماريا نفسها عن التمثال فجأة وقالت دون أن توجه الكلام لأحد.

- بر... أشعر بالبرد. أنعود إلى المنزل؟

سرت همهمة موافقة بدأتها السيدة تيران التي كانت تلف وشاحها الصوفي حول كتفيها الممتلئين. انتظرت روندا ابتعاد الجميع قبل أن تجذب نفسها عن العشب وتقف، ثم أزالت إكليل الزهر عن رأسها ورمته إلى الأرض، قبل أن تتقدم إلى والدها وتدس يدها في ذراعه.

كانت قد وصلت إلى المنزل تقريباً عندما تذكر أن حقيبتها الصغيرة ما تزال قرب التمثال حيث جلست قرب ليزا. وكان ما يزال هناك بعضاً من نور الأفق يخولها رؤية الحقيبة واستعادتها. اعتذرت بسرعة من والدها وعادت أدراجها.

سرعان ما وجدتها، فانحنت تلتقطها لكنها في هذه اللحظة شاهدت إلى جانبها اكليل الزهر... فالتقطته باندفاع متهور ووقفت تنظر إليه... عروس... هكذا قالت ليزا... لكن لم تكن العرائس وحدهن من يأتين بالزهور للنمر. ما من فتاة على الجزيرة كانت تجرؤ على القول «الوحش الجزيرة» إنها تريده في وجهه. ووضع الزهور على التمثال كان رمزاً قديماً كالرقص أمام الآلهة... وإذا اختار السيد أن يترك الزهور تذبل وتموت فلن يعرف بها أحد سوى الفتاة التي وضعتها... عندها على الأقل سيكون ذلها خفياً، وخاصاً.

كانت هناك قوى خفية تدفع روندا للتحرك، فسارت حالمة، كأنها آلة ليست مسؤولة عن تصرفاتها... تقدمت إلى الأمام، حتى

NOOR

قاعدة التمثال وحدقت في وجه «الوحش» العبوس.

كانت يدها ثابتة وهي تضع بلطف إكليلها فوق برائنه. لكن، ما إن تراجعت، حتى بدأت ترتجف بعنف، فأمسكت بتنورة فستانها الطويل وركضت كالمجنونة عائدة إلى القصر. تجنبت روندا دخول القصر عن طريق الشرفة لأنها كانت تحس بألم في جنبها من الركض، ولأنها تبدو حمراء اللون مشعثة. دخلت من الباب الجانبي، وتسللت دون أن يلاحظها أحد عبر الردهة، ومنها إلى السلم.

ما إن وصلت بسلام إلى غرفتها حتى جلست على كرسي طاولة الزينة. وبدأت تزيل الدبابيس التي كانت ترجع شعرها إلى الخلف. هزت رأسها فانسدل الشعر بحرية على كتفيها... وجلست جامدة دون حراك، تحدق في المرآة تفكر في ما دفعها لتفعل ما فعلت؟ لكن لا داعي إلى قلقها إذ سيمضي وقت طويل قبل أن يلاحظ أحدهم الاكليل. وحين بدأت بتسريح شعرها، سمعت دقاً خفيفاً على بابها. ثم انفتح الباب ليدخل ماثيو إلى الغرفة.

ـ أتود الحديث معي سيدي؟

وقف ينظر إليها لحظات بصمت، ثم تلاعبت ابتسامة على شفتيه:

ـ من بين اشياء أخرى... أجل.

قبلت روندا شفتيها بطرف لسانها وقالت بهدوء لا بأس به:

ـ لا أظن أن بيننا شيئاً نقوله لبعضنا.

ـ اوه... لكنك مخطئة روندا... فنحن لم نبدأ الحديث بعد.

مد إحدى يديه، وكانت مطبقة إلى جانبه، ليفتحها أمامها...

سارعت إلى إغماض عينيها خائفة مما سترى.

ـ لقد قص عليك بيدرو الأسطورة... ألم يفعل؟ ليس فقط الجزء المحترم منها الذي قصصته على ليزا الآن. بل الجزء المتعلق بالجميلات اللاتي كن يتخذن التمثال وسيلة للإشارة إلى رغبتهن في إرضاء سيدهن... قد تكون زهورك ميتة روندا، لكن رسالتها فعالة. ألا ترغبين في سماع ردي؟

فهمست متلاشية:

ـ لا... لم أفكر في ما فعلت... فما هي إلا دعابة غبية...

ـ دعابة، عزيزتي؟ لكنني منعتك من التلاعب بي كما حذرتك من الكذب علي؟ انظري إلي روندا، وقولي في وجهي إن ما قمت به كان لعبة أخرى.

فصاحت بجنون تحس بأنها علقت في الفخ وتملكها الذعر:

ـ لا استطيع... ليس من حقك...

ـ اوه... بل تستطيعين... ولي كل الحق!

رفعها عن الكرسي وأوقفها على قدميها ثم راحت يده تعبث في كثافة شعرها، ولم يلبث أن أوقف رأسها بقبضة تعجز هي معها عن التحرك. فهمست متوسلة:

ـ أنت تؤلمني!

لكن وجهه بقي متجهماً:

ـ اؤلمك؟ أنا دهش من نفسي لأنني لم أكسر عنقك! لقد دفعتني إلى حافة الجنون بمزاجك ونزواتك المتقلبة. لكن هذه المرة سأحصل منك على رد... والأفضل أن تكون الحقيقة... أنت من ترك هذه الزهور؟

ارتجفت شفتاها وهي تعترف:

NOOR

ـ أجل... لكنني ما عنيت... ما كان يجب أن تراها.

ـ اوه... لا أشك في هذا... ولكنت آمنة تماماً لولا افتقادي إياك وذهابي للبحث عنك كمضيف طيب. توقعت أن أراك مستلقية في الظلام مكسور كاحلك أو ملتو... لكنني وجدت هذا.

ورمى حفنة الزهور على طاولة الزينة... ثم أرخى قبضته بعض الشيء عن مؤخرة رأسها لتنزلق إلى بشرة كتفيها الناعمتين الرقيقتين، وأكمل هامساً:

ـ الآن... اخبريني أن زهورك تكذب، وأن ليس لديك هدية لي.

جذبها إليه... ثم أحنى رأسه نحوها باشتهاء مدمر، دمّر لها كل الدفاعات التي حاولت أن تقيمها ضده.

تعلقت به وكل عصب في جسدها يرتجف لمداعبات يديه. ما عاد يهمها إلا وجودها بين ذراعيه... حتى ولو تبين لها أن هذا لن يدوم أكثر من ليلة أو حتى ساعة. فقد أحست أنها لم تعد تملك أية كرامة فيما يتعلق به.

ارتدّ عنها أخيراً، وعيناه الذهبيتان ترقصان وتلمعان لمعاناً يضفي رقة ساحرة:

ـ أنت لي روندا.

كان كمن يسألها، فتنفست بالرد بهدوء:

ـ أجل.

فضحك بصوت منخفض:

ـ لا تتواضعي يا جميلتي. سأجد في الوقت المناسب خضوعك بهجة لي. لكنني لا أريد أن يكون هذا عادة تعتادينها طوال حياتنا معاً.

ارتجفت، فأحس بارتجافها وسأل:

ـ ما الأمر عزيزتي... أحائرة لأنني أريدك زوجة لي؟ أهو سر آخر؟

ـ تريد الزواج مني؟

فالتوى فمه بسخرية:

ـ أجل... وما ظننت غير هذا؟ اوه... لا تقولي! فأنا أعرف تماماً رأيك في أخلاقي ودوافعي... أتريدين أن أركع عند قدميك لأقنعك؟

رفعت نظرها إليه تتسع عيناها برزانة:

ـ لا... لكنني ما علمت... أنت لم تلمح لي...

ـ لم أشأ أن أقول لك ذلك بهذه السرعة... كم مضى على تعارفنا؟ أردت أن أتودد إليك بهدوء مدة طويلة، وأن أضع العواطف والاضطرابات كلها خلفنا... لكن حتى هذا لم ينجح كما خططت له. وها أنا ذا... عزيزتي... في الوقت غير المناسب، في المكان غير المناسب... أطلب منك أن تكوني زوجتي.

وأصبح صوته جاداً وهو يردف:

ـ لكنني لا أريد ردك الآن. أريدك أن تفكري ملياً، في ما يعني هذا لك. أنت تعرفين من خلال حياة والدك نوع الحياة التي ستعيشينها معي. ونوع المطالب التي ستطلب منك... فلم يكن لي يوماً «بيت» دائم... لأنني كنت معظم أيامي أقضيها في السفر... وكنت أينما حللت، يتوجب علي وضع احتياجات الآخرين في المرتبة الأولى قبل احتياجاتي. بالطبع أريدك معي. لكن قد يحدث عندما ننجب أطفالاً، أن أضطر إلى تركك وحدك.

NOOR

أتظنين أنك قادرة على احتمال هذا روندا؟ أتأخذين حياتي وكل ما تعنيه وتجعلين منها حياة لك؟

نظرت إليه وقد صدمت كلماته هذه فرحتها فأدركت أن الزواج به سيعني لها نهاية طموحها، فلا عمل ولا استقلال بعد الآن. إنما حياة زوجية محورها زوجها وهي ستكون فقط... زوجته وتمتم:

ـ فكري في الأمر عزيزتي... وفي الصباح، تعالي إلي، اعطيني ردك.

بينما كان الباب يغلق خلفه، جلست روندا ثانية على الكرسي. ساقاها ترتجفان... في بضع لحظات انقلب عالمها رأساً على عقب. ضغطت يديها على خديها، تحدق في المرآة عاجزة عن التصديق.

لقد قالت لها ليزا إنها عروس، وستصبح عروساً، عروساً لماثيو... أغمضت عينيها، تشعر بدمار من السعادة، تتخيل تعجرفه البارد ولمعان عينيه... عندها فقط تذكرت إنه لم يقل لها أنه يحبها... بل كان واثقاً فقط من حبها له... قطبت جبينها قليلاً... لكن ما الفرق الذي قد تحدثه بضع كلمات؟ حاولت الحوار مع نفسها، لا بد أنه يحبها، وإلا لما طلب منها الزواج.

لكن حتى بعد ان اطمأنت، تذكرت تحذير بيدرو من أن ماثيو يتزوج فقط لمتعة ذاتية. وأنه عندها لن يكون زوجاً تقليدياً... كزوج انكليزي، كما قال. لكنها أبعدت الفكرة عن رأسها فهو أخبرها منذ قليل أن حياتهما معاً لن تكون سهلة.

أطفأت النور، واستقرت في الفراش، لكن النوم جافاها. حتى عندما تمكنت من اغفاءة خفيفة، استيقظت مجفلة بعد قليل. تحس

بخفقان عنيف في قلبها. أخيراً، جلست، واضاءت الأنوار وصبت لنفسها كوباً من إبريق عصير قرب السرير.

للمرة الأولى خلال حياتها الفتية، تمنت لو أن لديها أقراصاً منومة... فإن لم تسترخ قليلاً فستبدو منهارة عندما ترى ماثيو في الصباح.

في الصباح! نظرت إلى ساعتها وهي تعود إلى النوم، إنه الصباح الآن... ماذا ستكون ردة فعله لو ذهبت إليه الآن وأعطته الرد؟ ربما يكون مستلقياً بدوره بعد أن جافاه النوم، مضطرباً متلهفاً مثلها. احتوت جسدها الحرارة وهي تتصور النتيجة الحتمية لذهابها إلى غرفته. فترددت، محاولة تجميع أفكارها المشتتة وتعقلها. لكنها لم تستطع شيئاً أمام اشتياقها ولهفتها، وحاجتها إلى أن تكون بين ذراعيه... بل إلى الطمأنينة في حبه... إذا أصبحت له... ربما تزول المخاوف والشكوك التي تزعجها.

تحركت إلى الخارج، ومنه إلى الرواق وكأنها شبح أسود. هذه المرة لم تحس بعينين مختبئتين تراقبانها. بل بثقة عارمة بالنفس راحت تهن وتضعف قليلاً وهي تنعطف من الرواق إلى الممر الموصل إلى جناح ماثيو... حيث رأت مصباحاً صغيراً كان على طاولة قرب بابه. لكن هذا لم يخفِ حقيقة وجود ضوء ساطع في الداخل. وبقلق رفعت يدها تدق الباب. لكن يدها تسمرت في الهواء، فقد تناهت إليها أصوات من الداخل.

شيء واحد أصبح مؤكداً. لن تدع أحداً يراها هنا، نصف عارية في ثياب النوم، خارج غرفته، فبغض النظر عن كرامتها هناك ماثيو الذي لن يجد في الأمر تسلية.

NOOR

أجفلت وهي تلاحظ أن الأصوات في الداخل تتصاعد... ثمة زائر على وشك المغادرة، وهي الآن غير قادرة على العودة إلى غرفتها... شهقت شهقة تكاد تكون نحيباً. وهربت نحو الممر الآخر، تخبىء نفسها وراء الستائر المخملية التي تخفي الباب الموصد إياه خلفها.

الصوت الذي وصل إليها عندما انفتح الباب لا مجال للخطأ فيه، إنها ضحكة امرأة. وقفت للحظات مشلولة، ثم وبكل حذر أبعدت الستارة قيد أنملة لتستطيع الرؤية.

كان ماثيو يقف بالباب المفتوح ينظر إلى ماريا روموس، عارياً نصفه، حافية قدماه، ملفوفاً روبه حول خصره بلا اعتناء، كاشفاً بذلك عن صدره حتى الوسط.

أما ماريا فكانت مغطاة من عنقها حتى قدميها، لكن بما أن ثوب نومها شفاف جداً، فقد كان مثيراً أكثر مما لو كانت عارية. وسمعت روندا الصوت الأجش المثير يقول:

ـ وداعاً يا حبيبي... لا تدعني إلى زواجك.

ونظرت إلى يدها التي يلتف عليها سوار من الزمرد اللماع، ودوت ضحكتها من جديد. ولم تسمع روندا رد ماثيو فقد انكمشت سعياً لدعم الجدار خلفها، ثم وضعت يديها على اذنيها، غير قادرة على تحمل سماع المزيد.

بعد أن شعرت بأن قرناً من الزمن مرّ، جمعت قوتها وشتات نفسها ثم فتحت الستائر وخرجت إلى الممر، كقطة مذعورة لا تدري في أي اتجاه تركض...

لن تستطيع البكاء الآن... فللبكاء أوان آخر، أما الآن فهو

أوان الهرب. ووضع أكبر قدر ممكن من المسافات بينها وبين ماثيوس سبيراتوس... ترنحت قليلاً، كطفل يستيقظ من كابوس. وتوجهت نحو غرفة أبيها.

• • •

NOOR

٨ ـ المرفأ الأخير

رمت حقيبتها الصغيرة، وخلعت حذائها ثم توجهت نحو الهاتف الذي شرع بالرنين ما إن وطئت قدمها الشقة. وكما توقعت كان المتكلم بيرس.

ـ مرحباً رون. ألديك شيء هذا المساء؟ فكرت في القاء نظرة على المطعم اليوناني الجديد الذي فتح أبوابه حديثاً... أعلم أنك تحبين الطعام اليوناني.

ـ أنا متعبة بيرس. لقد كان يومي مرهقاً.

ـ اوه... طبعاً... كيف هو عملك الجديد؟ متى سنرى وجهك في المجلات؟

ـ بعد شهرين على الأقل. باتريك اينجل يصورني الآن للدعاية.

ـ إن هذا لرائع!

ـ هه...

وتذكرت الساعات الطوال التي قضتها تحت الأنوار تتعرض لوميض آلات التصوير التي تحاول اكتشاف لقطة مؤثرة مناسبة من بين عشرات اللقطات لكن كيف لها إقناع بيرس ووالدها بأنها تعمل حقاً جاهدة. علمت هذا منذ البداية... فعملها لم يكن لهما إلا «هواية صغيرة» والسبب الوحيد الذي جعل والدها يوافق على عملها

كان أمله في أن يساعدها هذا على التغلب على مرارة الأحداث التي مرت بها.

عندما عادت إلى لندن، منذ شهر مضى، كانت متألمة عاطفياً ولم تستجب إلا بعدائية عندما اتصل بها بيرس. لكنها بالتدريج تناست القوقعة الدفاعية التي بنتها حول نفسها.

سمعت صوت بيرس عبر الهاتف ينتشلها من أفكارها:

ـ اسمعي رون... ارفعي قدميك إلى الأعلى نصف ساعة، ثم اتصلي بي مجدداً إذا غيرت رأيك... سأنتظرك.

ـ اوه... بيرس... حسناً سأرى كيف سأشعر فيما بعد. وأشكرك على الدعوة.

وضعت السماعة من يدها وتوجهت إلى غرفة الجلوس في شقتها. لم تكن غرفة كبيرة بل صغيرة ملأى بركام أغراض ثلاث فتيات يعشن معاً فيها. تنهدت روندا وهي تبدأ بترتيب الغرفة... الشقة بعيدة كل البعد عن فخامة المنزل الذي كانت تسكنه مع والدها. لكنها لم تندم على قرارها بالانفصال عنه والسكن وحدها، مع أن والدها حاول ثنيها عن عزمها، لكنها تعنتت في قرارها.

علمت أن ألمها قد أزعجه إلى أبعد حد يوم اقتحمت عليه غرفته في القصر تلك الليلة في كاستاريوس. منذ ذلك اليوم عاشت حياتها العاطفية على مستوى مصطنع، ولم يتعرض مطلقاً لنوبات هستيرية يتعرض لها الآباء أمثاله عندما تضطرب حياة بناتهم.

وسرعان ما قام بكل الترتيبات اللازمة لرحيلهما... كانت وهي تحضر الحقائب تسير كالآلة... تلك الفتاة الصفراء الوجه الشاحبة التي كانت تلمحها في المرآة لا علاقة لها بها.

NOOR

لكن ما إن اقترح والدها عليها أن تودع ماثيو على الأقل، حتى أصيبت بالجنون. ولمّا يئس منها ودّعه نيابة عنها. لم تتكلم روندا البتة خلال الرحلتين من الجزيرة إلى أثينا ومنها إلى لندن، بل بقيت غارقة في مقعدها تنظر عبر النافذة دون أن ترى شيئاً. حين وصلا إلى المنزل، ذهبت إلى النوم حيث نامت ما يقارب اليومين.

حالما تمكنت من استجماع شتات نفسها، ذهبت لتقابل باتريك اينجل تسأله عما إذا كان لا يزال جاداً في عرض العمل القديم ذاك بأن تكون عارضة للتصوير. فأمرها أن تقص شعرها، وأرسلها إلى دار تجميل، قامت على تدليكها وتليين جسدها إلى أن زال التوتر والتصلب منه.

منذ ذلك الوقت، عملت معه دائماً، وقد تلقت خلال هذا الشهر عرضين من مصورين آخرين... وقد كانت شاكرة استغراقها في العمل، لأنه جعل تفكيرها منصب عليه... لكنها في الليل فقط كانت تذكره، تذكره وهي مضطجعة على سريرها الضيق، تصغي إلى أنفاس زميلاتها في الشقة فتعود إليها ذكرياتها.

كانت تحلم بماثيو دائماً... وقد تساءلت دائماً عن سبب طلبه الزواج منها... لماذا لم يطلب هذا من ماريا كما تكهن بيدرو؟ ربما اعتقد أنها ستكون زوجة مطيعة أكثر من ماريا. فمن الواضح أنه لا يميل إلى تكييف حياته لتتوافق مع أي التزام عائلي. إلا أنه يعتقد أنه يستحق مجداً من طرفين: زوجة شابة محبة مطواعة... وعشيقة مفضلة لديه، طلباً للتنويع في حياته.

تقدمت نحو النافذة تفكر في أن زميلتيها لينا وڤيونكا ستصلان قريباً، لكنهما دون شك ستخرجان بعد حين بصحبة اصدقائهما. لم

يخفِ بيرس سعادته لاتصالها به والموافقة على الخروج، وسرعان ما وصل في سيارته ليأخذها. وكان المطعم أكثر فخامة وذوقاً من سمعته. وأحست روندا بالاسترخاء أثناء العودة إلى الشقة.

لكن أولى اضطرابات تلك الليلة برزت عندما أوقف بيرس السيارة خارج مبنى الشقة. إذ كانا عادة يتبادلان تحية المساء بسرعة ثم يفترقان. أما الليلة فقد أحست روندا بقلق، لأنه قرر احياء علاقتهما الحميمة... دس ذراعه حول كتفيها محاولاً عناقها... فحاولت جهدها ألا تقسو عليه وذلك لتجنيبه الإحراج. فكان إن حررت نفسها تسأله عما إذا كان يرغب في الصعود معها إلى الشقة لتناول القهوة.

كانت قد قررت أن هذه غلطة حتى قبل أن تضع المفتاح في القفل، فقد يظن بيرس أنها تود تأمين مكان مريح لمتابعة غزله لها. وتمنت أن تكون إحدى زميلاتها في الشقة، لكن أملها خاب ووجدت الشقة فارغة، فتنهدت وذهبت إلى المطبخ لتحضير القهوة.

عندما عادت بالفناجين، كان بيرس ممدداً على الأريكة، براحة تامة، ربت على الأريكة قربه يدعوها للجلوس، فجلست بتردد واضح. محاولة ابقاءه بعيداً كي تستطيع التفكير بشيء تقوله... لكن، بدا واضحاً أنه لا يهتم بالحديث، ولم تمضِ سوى برهة قصيرة حتى حاول ضمها بين ذراعيه، لكنها قاومته، تتلوى لتحرر نفسها منه غير مخفية امتعاضها. فقال نافذ الصبر:

ـ اوه... هيا الآن رون... ما عدت ابنة أبيك الصغيرة... ولا تحاولي خداعي بأن صديقك المليونير لم يعلمك شيئاً من

NOOR

الحياة.

فواجهته ببرود:

ـ لست أدري عم تتكلم.

ـ لا تتظاهري بهذا... رأيت الحالة التي كنت فيها عندما عدت. قالت أمي يومها إنه كما يبدو جلياً جعلت من نفسك حمقاء أمام ذاك الرجل كما قالت إنها دهشة لأن عمي سمح بحدوث هذا.

ردت عليه ساخرة:

ـ يا لأمك العزيزة! ما ألطف اهتمامها بشؤوني.

ـ هذا طبيعي، كنت على وشك أن تكوني «كنتها». على كل أنا لا أشعر أن شيئاً تغير بالنسبة لي رون، ولست مضطرة أن تخبريني ما جرى في الجزيرة... لأنني أفضل ألا أعرف. لكنني أود القول أننا سنبدأ من جديد، حيث انتهينا.

ـ آسفة يا بيرس... هذا مستحيل.

وهبّت على قدميها واقفة تتجه إلى الباب وتقول بهدوء:

ـ أعتقد أن ذهابك خير من بقائك.

حدق فيها لحظات، ثم هز كتفيه. لكنه بينما كان يمر قربها مد يده فجأة فجرّها بين ذراعيه بقوة. قاومته، لكنه لم يتركها، فأخذت تشهق لتتنفس، وهو يبتسم، وكأنه راض عن نفسه:

ـ لست من حجر يا روندا، ليتني اؤثر فيك بدلاً من «الأمير»... لكن إذا كان قد تمكن من ايقاظ مشاعرك أخيراً، فأنا ممتن له.

فصاحت به من بين أسنانها:

ـ اخرج من هنا.

رفع يديه دليل استسلام ساخر، وقال بهدوء:

ـ فكري ملياً. فأنا أحبك رغم محاولتي الابتعاد عن هذا.

فردت ببرود:

ـ لديك أكثر الطرق شواذاً في إظهار هذا الحب.

بعد أن خرج، أغرقت نفسها فوق الأريكة وأجهشت في البكاء... فقد كانت تعتمد على بيرس ودعمه لها أكثر مما تعترف، وبدا لها الأمر وكأن شقيقها المفضل انقلب ضدها...

كانت على حالها ساكنة متعبة عندما وصلت في الصباح التالي إلى عملها... وأثناء خروجها من غرفة الملابس بعد انتهاء التصوير، نادتها موظفة الاستقبال:

ـ والدك اتصل روندا... يقول إنه مضطر للتأخير، ويود أن تقابليه في مكتبه عوضاً عن المطعم.

شكرتها روندا... كان والدها يصرّ على دعوتها إلى العشاء معه ثلاث مرات أسبوعياً، حيث كانت تتناول معه وتقوم بدور مضيفته عندما يحتاج إليها... والغريب أنها باتت تراه منذ تركت البيت أكثر من ذي قبل كما أن علاقتهما تحسنت كثيراً.

قررت أن تذهب إلى مكتبه سيراً على الأقدام. مع أن الصيف كان قد بدأ يفسح في المجال للخريف كي يتقدم، ها أولى ورقات الخريف تتساقط في طقس ما زال يحافظ على دفئه الذي يشجع على التسكع وتضييع الوقت.

كان عليها إظهار «إذن المرور» الخاص بها عندما وصلت المبنى الحكومي الذي يعمل فيه والدها. وابتسم رجل الأمن، ولامس قبعته تحية لها. فقطعت الباحة الداخلية وصعدت المصعد إلى الطابق العلوي ثم اجتازت الممر المكسو بالسجاد فوصلت إلى المكتب الصغير المريح حيث سكرتيرة والدها.

NOOR

رفعت السكرتيرة رأسها عن عملها مبتسمة:

- مرحباً آنسة ستورم. ألم تكن تلك صورتك في مجلة «لك سيدتي» في الأسبوع الفائت؟

ضحكت روندا:

- يدهشني أنك عرفتني رغم مساحيق التجميل.

فغمزت السكرتيرة بعينيها:

- حسناً، أستطيع القول انني لم أفعل... بل السير تشارلز دلني عليها، في الواقع. أظنه كان فخوراً بها، في سره.

- هذه أنباء جيدة لي... أهو مشغول؟ هل استطيع الدخول؟

ترددت السكرتيرة قليلاً، فظنتها روندا تنظر إليها نظرة غريبة، لكن لهجتها كانت طبيعية عندما قالت:

- طبعاً آنسة ستورم، لقد طُلب مني إدخالك حالما تصلين.

فتحت روندا الباب الموصل إلى مكتب أبيها الخاص، ودخلت. كانت الستائر المعدنية مسدلة فوق النوافذ تمنع أشعة الشمس القوية... وللحظات ظنت روندا أن الغرفة فارغة. ثم شاهدت جسد رجل طويل يرتسم ازاء النور المنبعث من وراء ستائر النافذة. وعلمت حتى قبل أن يتكلم أنه ليس والدها:

- إذن، لقد التقينا ثانية روندا.

حاولت أن ترد... لكن الكلمات لم تخرج... ثم استدارت، وقد سدّت الدموع الرؤية عن عينيها... تتخبط متعثرة للوصول إلى قبضة الباب، لكن قبل أن تتمكن من الفرار، كان قربها، يده تطبق على يدها تبعدها عن الباب، ثم تديرها بعنف لتواجهه. صوته هادىء لكن نبرته جعلتها ترتجف:

- لا يا عزيزتي... لن يكون أمامك مجال للهرب بعد.

فصاحت:

- اتركني!

حاولت تحرير نفسها لكن قبضته على ذراعها اشتدت:

- لا... لن أرتكب الغلطة نفسها مرتين عزيزتي... لن أتركك ثانية... وإلى الأبد.

قالت ببرود، وصوتها يرتجف:

- قد تكون السيد في جزيرتك، لكنك الآن في أملاك الدولة البريطانية، وإذا لم تتركني، فسأجعلهم يرمونك خارج المبنى!

لمعت أسنانه بابتسامة ساخرة:

- من هذه النافذة، لا شك. أيتها الحمقاء الصغيرة... أتظنين أن بإمكاني الدخول والاستيلاء على مكتب أبيك دون إذنه؟

- أبي... يعرف أنك هنا؟

ما هذه الخيانة الكبرى؟ والدها يعرف أنها هربت من هذا الرجل، فلماذا يساعده؟

- بالطبع عزيزتي... عندما وصلت لندن ليلة أمس قصدت منزله مباشرة، آملاً أن أراك. فقال لي إنك ما عدت تسكنين معه. وتحدثنا، ثم حاول الاتصال بك لكنه لم يلق جواباً.

وضع يده تحت ذقنها، رافعاً وجهها إليه مجبراً إياها على توجيه بصرها إليه:

- لماذا هربت مني روندا؟ ظننتك منحتني قلبك، أكانت «الهدية» أكثر مما أستحق؟ أخذلتك شجاعتك وجعلتك تهربين دون أن تقولي كلمة؟

صمت لحظات دون أن يتلقى الرد، فتابع:

- لقد سألتك سؤالاً روندا... تلك الليلة في القصر. وها قد

NOOR

جئت الآن لأحصل على الرد: هل تتزوجينني؟

نظرت إلى خطوط وجهه المتعجرفة التي لاحقتها في أحلامها، نائمة مستيقظة، عندما تدحرجت دمعتان كبيرتان على خديها وهي تهز رأسها ببطء، بالرفض.

ـ . . . فهمت.

وأخرج أنفاسه بتنهيدة طويلة، وأكمل:

ـ هل لي أن أعرف السبب؟ أترين يا عزيزتي، ظننتك تحبينني.

كادت تقول أحبك، لكنها قالت:

ـ أحببتك.

ـ أطلبت عظيم الحب عندما سألتك أن تشاركيني حياتي؟ أنت صغيرة جداً عزيزتي. . . أليس كذلك؟ خفت أن أدفعك.

فصاحت:

ـ لم أخف من مشاركتك حياتك. . . بل أنت لم تستطع أن تشاركني حياتي.

ـ أنا؟ لكنني حذرتك من كل شيء روندا. لولا المطالب التي تواجهني من الآخرين للحقت بك إلى هنا منذ اسابيع.

ـ لم أقصد هذا.

ـ ماذا إذن؟

ـ ماريا روموس.

أصبح صوتها همساً منخفضاً جعله يحني رأسه بحدة ليسمع ما تقول، حين نظرت إليه ثانية كان وجهه بارداً:

ـ أنا لم أدع أمامك أبداً أنني قديس روندا. لكن هذا كله انتهى أمره. أعدك بهذا.

ـ ربما الآن. . . لكن تلك الليلة ماثيو، ليلة طلبت مني

الزواج. . . خرجت من غرفتي إليها. . . لا تنكر. . . لم استطع تحمل هذا. رأيتكما معاً عند باب غرفتك، كانت تضع السوار الذي أهديته لها. . . بعدها لم استطع مواجهتك، وكان عليّ الهرب.

ـ ما هذا الهراء؟ أي سوار؟ أنا لم أهدِ ماريا سواراً.

ـ لكنها كانت تضعه تلك الليلة بل لم تكن تضع سواه تقريباً.

فرد برزانته:

ـ إنها تختار ملابس مثيرة. أعلم ذلك لكنني واثق أنها لم تكن تعلم أن هذا أمر معروف. وأنت محقة بشأن السوار، اذكره الآن. لكنني دهش لأنك خلتني أهديت امرأة حلية خالية من الذوق.

ـ إذن من أهداها إياها؟

فالتوت شفتاه:

ـ لم يكن من اللياقة أن اسألها. . . لكنها لمحت لي إلى أنها هدية من معجب جديد، يرغب أكثر مني أن يعطها الاهتمام الذي تظن أنها تستحقه.

ـ لكن لماذا كانت في غرفتك؟

ـ سأجيب عن سؤالك بسؤال آخر. . . لماذا كانت على الجزيرة أساساً. . . فأنا بكل تأكيد لم أدعها.

نظرت إليه باستغراب فأطرق متجهماً:

ـ أجل عزيزتي. . . إنه ابن عمي الطائش. . . قلت لك إنه يريدك لنفسه، ألم أفعل؟ ولقد أسديت له خدمة عندما سألته أن يكون مرافقك. وعندما أصبحت حراً لأهتم بك، حاول وضع العصا في دواليبي باتصاله بماريا في أثينا ودعوتها إلى القصر. وما إن وصلت حتى عجزت عن صدها. . . ثم. . . أردت أن أرى إذا كنت ستغارين منها.

NOOR

ابتسم لها بخفة:

ـ لكن الواقع كان مراً... فأنا من وقع في حبك منذ أن شاهدتك، وأنا من تملكتني الغيرة من بيدرو.

عادت الحرارة إلى خديها وهي تتذكر الظروف التي مرت بها. فقالت متصلبة:

ـ لا تذكرني بتلك الظروف.

فرفع حاجبيه ساخراً:

ـ لا...؟ أتريدين أن أخبرك متى رأيتك للمرة الأولى؟ يومها كنت جالسة على الصخرة وحدك سعيدة تسرحين شعرك وكأنك حورية البحر... يومذاك لم تكوني تلك الطائشة اللعوب التي توقعت أن أراها.

فصاحت:

ـ لقد أحسست أن أحداً يراقبني يومها!

ـ لكنني كنت واثقاً أنك لم تريني، فيما بعد شاهدتك تسرحين شعرك ثانية، قرب بركة السباحة، ونظرت إلي وقلبك كله في عينيك. عندها أحسست أنك تحبينني.

فالتوى فمها قليلاً، وقالت بهمس معترفة:

ـ ظننت نفسي أعطيتك أكثر من سبب لتفهم هذا.

ـ لأنك تجاوبت معي عندما كنت أعانقك؟ كنت أعرف أنني قادر على جعل المرأة تريدني... لكنني لم أكن واثقاً من قدرتي على جعلك تحبينني.

جعلتها نظرته فجأة تحس بالخجل، فأطرقت إلى الأرض.

ـ لكنك لم تفسر لي بعد ماذا كانت تفعل ماريا في غرفتك، ألم تدعها أنت؟

ـ ماريا لا تنتظر دعوة، لقد جاءتني تلك الليلة تسعى فأوضحت لها أن كل شيء بيننا انتهى. لم أذهب إلى غرفتها، أو دعوتها إلى غرفتي، بل جاءت إلي غرفتي لتشير لي أنني سأفقدها إذا تجاهلتها، أمام ذلك الرجل الآخر. فأخبرتها أنني طلبت منك الزواج، وتمنينا لبعضنا بعض السعادة وافترقنا.

وأصبح صوته أرق:

ـ يومها قلت لك الحقيقة، فلماذا جعلتنا نهدر كل هذا الوقت؟ كان كل ما عليك فعله أن تسألني لأجيبك عما تريدين. لكن عندما سافرت دون أن تودعيني بكلمة، ظننتك قررت أن تنتقمي مني أخيراً... لتجعليني أعاني كما قلت مرة... ألم نعان ما يكفي حبيبتي؟

شرعت بالبكاء نادمة على غبائها وقلة ثقتها به، لكن دموعها كانت تمتزج بشيء اسمه الراحة... ولم يكن هناك مجال لانكار الحنان في صوته:

ـ اوه... لا... حبيبتي... زمن الدموع ولى... اسألك ثانية... روندا، أتصبحين زوجتي؟

ردت بخجل وهو يمسح الدموع عن خديها بيده:

ـ أتريدني حقاً؟

ابتسم... وللمرة الأولى، جذبها بين ذراعيه يلصق جسدها الرقيق بجسده القوي وتمتم في اذنها:

ـ ألديك شك في هذا حبيبتي؟ أنا مستعد كل الاستعداد لأبرهن لك عن حبي. فإن شئت الآن شرعت به، هذا إذا استطعت اقناع السكرتيرة الطيبة بألا تقاطعنا.

فاحتجت بخجل:

NOOR

ـ ماثيو!

ـ صُدمت حبيبتي؟ لم تفسري إلى الآن سبب وجودك خارج غرفتي تلك الليلة؟

فأطرقت برأسها:

ـ أنا... أنا... جئت لأعطيك ردي.

ـ كوني صادقة، لا بالكلمات، فحسب؟

ـ لا... لا ماثيو... لا بالكلمات.

فهمس لها وهو يقبلها:

ـ آه حبيبتي... زوجتي!

• • •

NOOR